# جســـــور لا جـــــدران
## رموز للاتـفاق في زمن الافتراق

جميع حقوق الطبع والنسخ والنشر محفوظة

الطبعة الأولى ٢٠٠٦ م

لا يجوز إعادة نسخ أو طبع أو نشر هذا الكتاب أو أى جزء منه بأى طريقة كانت ميكانيكية أو إلكترونية أو التصوير أو التسجيل أو البث عن طريق الشبكات الإلكترونية أو غيرها إلا بموافقة الناشر على ذلك كتابة ومقدماً

المكتب المصرى الحديث
www.almaktabalmasry.com
info@almaktabalmasry.com

القاهرة: ٢ شارع شريف عمارة اللواء ت: ٣٩٣٤١٢٧
الإسكندرية: ٧ شارع نوبار المنشية ت: ٤٨٤٦٦٠٢

# جسور لا جدران

## رموز للاتفاق في زمن الافتراق

إميل أمين

تقديم

د/ على السمان

المكتب المصرى الحديث
www.almaktabalmasry.com

# تمهيد

يارب

استعملني لسلامك

فاضع الحب حيث البغض

والمغفرة حيث الإساءة

والاتفاق حيث الخلاف

والحقيقة حيث الضلال

والرجاء حيث اليأس

والنور حيث الظلمة

والفرح حيث الكآبة

يارب

استعملني لسلامك

**فرنسيس الاسيزي**

# تقديم د/ علي السمان

لقد كان الأستاذ/ إميل أمين موفق في اختيار عنوان كتابه (جسور لا جدران) في وقت يبذل الآخرون جهودهم لبناء جدران شاهقة تفرق بين من كانوا جيران خلال حقبات طويلة من التاريخ.

نعم جسور لا جدران ... لأن الله وحده يعلم كم من جدران غير مبنية تمثل حواجز نفسية، وعائق أمام المحبة والمودة تعاني الخلط بين الأوراق، وأيضًا تعاني من التعميم الخاطئ في الأحكام على الناس، وكانت تجربة الأستاذ إميل أمين الإعلامية عنصر مساعد في حسن اختيار العنوان الآخر لكتابه (رموز للاتفاق في زمن الافتراق) لأنه يعلم أن الرموز لها أهمية كبيرة في حياة الشعوب، وتبقى عالقة بذهنها طوال التاريخ.

ولا أستطيع إلا أن أكون معه وبجانبه وهو يعرض لنا أنصع صورة في تاريخ العلاقات الإسلامية المسيحية من خلال شخصية ودور وتاريخ القديس القدوة والرمز "فرنسوا دي اسيزي" مؤسس الرهبنة الفرنسيسكانية، وهي فعلاً من أقدر الرهبانيات الكاثوليكية، والذي ولد في بلدة اسيزي بإيطاليا في سبتمبر ١١٨٢م، وكان مولده بشير بالخير والمحبة والحب والزهد بأباطيل العالم كما يقول الأستاذ إميل أمين.

كم من أخوتي المسلمين وكم من شباب أمة الإسلام يعلمون أن هذا القديس العفيف الطاهر كان أحد النادرين الذين تصدوا بالرفض للحروب الصليبية، ووجه رسالة محبة ومودة ودعوة إلى التعاون إلى (الملوك والرؤساء والحكام والقضاة والمسئولين في كل مكان من هذا العالم) لإيقاف كارثة هذه الحرب، ولنبذ روح الشقاق والفراق، وكأنه كان عالمًا بالمستقبليات، وشعر بأن هذه الحرب ستترك آثارًا مدمرة للعلاقات الإسلامية المسيحية.

وكان من الطبيعي أن يشير الكاتب إلى رمز كبير آخر عملاق بدوره الذي لن ينساه التاريخ في سلام وتقارب الأديان، وهو البابا الراحل البابا يوحنا بولس

الثاني الذي اختار بوعيه مدينة اسيزي وصاحبها فرنسوا دي اسيزي لنبذ الكره والبغضاء ورفض الظلم ليعقد مؤتمرًا تاريخيًا جمع فيه رموز كل الأديان في يناير ٢٠٠٢ ليوقعوا على وثيقة جديدة في التاريخ، عبارة عن الوصايا العشر الجدد لصنع السلام في العالم، وكم أسعدني أن أكون ممثلاً لبيت الإسلام في هذا اليوم التاريخي، وأن ألتقي بقداسته بعد المؤتمر، وأن يكون من حظي أن أقول له من قلبي: "أنا سعيد وأنا آراك في دور مجمع الأديان حول رسالة السلام". ليت قصة الفرنسيسكان ومعارك سان فرنسوا دي اسيزي من أجل السلام تكون جزء من برنامج أبنائي وأخوتي حينما نتعرض لتاريخ منطقتنا ونتعرض للصراعات والحروب فنجد في هذه الصفحة من التاريخ ما يبعث بالأمل. وأن السلام والحوار هو الأبقى وفهم الآخر لأتفق أيضًا مع مؤلف (جسور لا جدران) أن الأجدر بنا آن نعطي عبارة حوار الأديان تعبيرًا أكثر دقة وهو "حوار آتباع الأديان".

كان وما زال الأستاذ إميل أمين بالنسبة لي زميل وشريك رحلة حوار آتباع الأديان الذي هو عقيدة تغني المؤمنين وتمنع أو تخفف من شرور الصدام والعنف، وتحمي مستقبل العيش المشترك على أرضية من الاحترام الكامل غير المنقوص من جانب كل طرف لدين آخر، هو حوار حول القيم المشتركة للأديان والبحث عن أرضية تعاون ومحبة بين أتباعها.

د/ علي السمان

## مقدمة

# لماذا (جسور لا جدارن)؟

تقول العرب أنه " في الليلة الظلماء يُفتقد البدر"، وفي زمن الافتراق يسأل الناس الاتفاق، وفي وجود الفجوات، وعندما تتعمق الثغرات تأتي الحاجة إلى ما يجسر الشقوق، التي سرعان ما تتباعد ضفتيها منذرة ومحذرة بالأسوأ الذي لم يأت بعد.

تاتي الجسور إذن لكي تلعب دورها الحضاري للوصل بين ما قد انقطع أو ماهو بسبيله إلى الانقطاع، في حين أن الجدران إنما تكرس الواقع الانفصالي، وتعزز سياسة الانعزال، وتعود بنا إلى زمان "الجيتو" ثانية ولإرجاع الأمور لأصلها، ولإحقاق الحقوق فإن "جسور لا جدران" ليس تعبير صاحب هذه السطور لكنه مذهب لطيب الذكر، البابا الكاثوليكي الروماني يوحنا بولس الثاني الكبير.

ففي السادس عشر من نوفمبر " تشرين الثاني " من عام ٢٠٠٣م، كانت الحكومة الإسرائيلية قد بدأت في تشييد الجدار العازل الذي يقطع أوصال الأراضي الفلسطينية، وفي اليوم ذاته بدأ البابا يوحنا بولس الثاني "٨٣ عامًا" والذي كان يعاني وقتها من تدهور حالته الصحية، يبدو في حالة جيدة نسبيا أثناء إطلالته عبر نافذة جناحه في حاضرة الفاتيكان متحدث أمام الحشد الغفير من المؤمنين الذين جاءوا من كافة أرجاء الأرض.

كانت تلك هي المرة الأولى التي يتحدث فيها البابا عن هذا الموضوع، وينتقد بناء جدار فاصل على الأراضي الفلسطينية. قال البابا " إن بناء جدار بين الشعبين الإسرائيلي والفلسطيني هو بمثابة عقبة جديدة على الطرق المؤدية إلى تعايش سلمي، وأن الواقع يشير إلى أن الأرض المقدسة ليست بحاجة إلى جدران، وإنما إلى جسور ".

ويضيف لا يمكن أن يحل السلام من دون مصالحة وإذا كان بابا روما قد رأى في الجدار العازل المادي الذي تقيمه إسرائيل عائقًا حقيقيًا في طريق التعايش

السلمي بين شعبين فإنني أحسب أن الأمر على طبيعته إنما يشير إلى حالة كوسمولوجية انتابت العالم في أواخر العقد السابق وامتدت مع سنوات العقد الحالي ولا يعلم أحد إلا الله إلى آين يمكن آن تمضي.

جدار إسرائيل كونته مواد مستخرجة من الأرض، مضافًا إليها الصخور وما يلزم لبناء الكتل الأسمنتية والأعمدة الخرسانية، والجدار الجديد الذي نشأ لاحقًا، كان عماده الأفكار، وموطن صراعه النفوس البشرية، ومجال جدله الحضارة الإنسانية فنشأ سدًا رهيبًا من السدود الرافضة للآخر تحت شعار "صراع الحضارات تارة " والوصول إلى منتهى الأجيال من خلال "نهاية التاريخ" تارة أخرى.

وليت الأمر توقف عند الجدل العقلي حول الطروحات الأيديولوجية لكن الشرر كان قد أطلق حريقًا مستعرًا حينما انحرف الفعل الديالكتيكي إلى المساس بالأديان وجوهرها ووضعها في دائرة التصادم والتنافس بدلا عن الحوار والتفاهم.

بل إلى آبعد من ذلك فإن الأسلحة الفتاكة قد وجدت لها دورًا في ميدان الصراع من خلال العمل وفقا لمبدأ الحروب السابقة، فكان ما كان في آفغانستان والعراق ناهيك عن مواقع ومواضع مرشحة للاشتعال في القريب العاجل هنا أو هناك في أرض العرب.

يمكننا القول إذن آن جدارًا دعائمه أشد وآقوى من جدار إسرائيل قد نشأ وأن مرحلة بنائه مستمرة وأخشى القول أن البناء عملية مستمرة غير متوقفه. جدار متين عالي البناء في العقول والافئدة يعزز الحضور العنصري ويرسخ منطلقات الكراهية ويمضي بالإنسانية إلى ما لا يحمد عقباه.

وإذا كان الجسر يتيح لطرفين اللقاء فإن الجدار يمنع قيام الحديث المتبادل بين أكثر من طرف ومن هنا فإن الجسر يبشر بالحوار والجدار ينذر بالصمت ويعمق الجهل بالآخر وإذا كان الناس اعداء ما يجهلون فإن المؤكد أنهم في حاجة إلى ما يمكنهم من المعرفة والتواصل مع الآخر لدحر العداء ولتجذير اللقاء.

واللقاء حديث بين طرفين وما احوجنا إلى العودة إلى البدايات حيث الإنسان في حوار مع الخالق سبحانه وتعالى... كيف ذلك؟

إذا اعتبرنا أن كلمة "الجسور" هي مرادف "للحوار" فإن مشهدًا توراتيا يشير إلى أن الله جل اسمه لم يرفض إقامة الحوار مع الإنسان ومع الشيطان أيضًا وقد كان كلاهما مخطئين كل الخطأ، ضالين كل الضلال ولم يقيم الخالق جداره العازل بينه وبينهم، لكنه عمد إلى الحوار كوسيلة للتعايش حتى في حال الخطأ مع الفارق الكامل في التشبيه بين الذات الالهية والنفس الإنسانية.

نقرا في الاصحاح الرابع من سفر التكوين أول أسفار العهد القديم ما يلي ".وحدث بعد مرور أيام أن قدم قايين من ثمار الأرض قربانًا للرب، وقدم هابيل آيضًا من خيرة ابكار غنمة، واسمنها فتقبل الرب قربان هابيل ورضى عنه لكنه لم يتقبل قربان قايين ولم يرضى عنه. فاغتاظ قايين جدًا وتجهم وجهة كمدًا فسأل الرب قايين لماذا اغتظت؟ لماذا تجهم وجهك؟ لو أحسنت في تصرفك ألا يشرق وجهك فرحًا وإن لم تُحسن التصرف فعند الباب خطيئة تنتظرك تتشوق أن تتسلط عليك لكن يجب أن تتحكم فيها ".

وكان أن عاد قايبل يتظاهر بالود لاخيه هابيل وحدث اذ كانا معًا في الحقل، أن قايين هجم على أخيه هابيل وقتله وسأل الرب قايين أين أخوك هابيل؟ فأجاب لا أعرف هل أنا حارس لاخي؟ فقال الرب له " ماذا فعلت؟ أن صوت دم أخيك يصرخ إلى من الأرض فمنذ الآن تحل عليك لعنة الأرض التي فتحت فاها وابتلعت دم أخيك الذي سفكته يدك عندما تفلحها لن تعطيك خيرها وتكون شريدا وطريدا في الأرض فقال قايين للرب عقوبتي أعظم من أن تحتمل ".

والحق أن المشهد السابق يشير إلى حوار رغم بشاعة الجرم والجريمة التي قام بها قايين، لكن الله تعالى كان يسعى إلى ايقاظ الضمير الإنساني عند قايبل الذي حاول كاذبًا التملص من مسوؤليته عما احدثه باخيه، "احارس انا لاخي؟ " لكنه في النهاية يقر بأن عقوبته وفي بعض الاصدارات الكتابية يقول "خطيئتي" أعظم من أن تغتفر وهو ما يعني أن الحوار قد جعل من قايين مقرًا بذنبه الذي نتج عن الصراع الطبيعي الذي وجد ويوجد على الأرض التي ضاقت بطولها وعرضها على شخصين أخوين كانت الكراهية بينهما جدارًا فاصلاً، وكان الحوار ما بين الذات الالهية وبين الإنسان العاصي طريقًا للاقرار بالحق والصدق حتى في حال سلبياته ودون أن يقتصر الحوار على مجال الايجابيات وهو ما يعززه المشهد القرآني الآتي:

ففي حوار الله والشيطان كما ورد في سورة الاعراف " الآيات من ١٠ إلى ٢٤ " وفي سورة الحجرات " الآيات من ١٥ إلى ٤٠ " يقول القرآن الكريم ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

والجلى للبيان والواضح للعيان أن الحوار القرآني السابق للعزة الإلهية مع الشيطان الرجيم يبرز حقائق إيمانية كالثواب والعقاب، والخير والشر، والايمان والكفر، وما كان لهذا الحوار أن يقوم من دون وجود الآخر.

هل يمكننا القول إذن أن الحوار هو الجسر الاول المنشود للتحدي والتصدي للجدران العازلة للآخر؟

أحسب أن ذلك كذلك.

ما الذي نريده إذن من "جسور لا جدران "؟

عندي أنه محاولة للوقوف على عدة قضايا جوهرية قضّت مضاجع الخليقة السنوات الماضية وعلى رأسها التصادم الفكري الحادث بين الشرق والغرب والذي يذهب لاحقا إلى الحديث عن المواجهة بين المسيحية والإسلام، وبين حضارتنا وحضارتهم إلى آخر المقارنات الاستعلائية والحوارات العسكرية إن جاز التعبير.

وعندي أيضًا أنه حديث مثير لشهية أصحاب النوايا الصادقة حول هل لصراع حتمي واجب الوجود كما تقول الفلاسفة؟ ام أنه من ذلك النوع الذي يستحضر ويحضر داخل اروقة وكالات الاستخبارات لتحقيق مآرب أخرى من وراءه.

ونبحث أيضًا قدرًا كبيرًا في المشاهد المضيئة في تاريخ العلاقة بين الشرق والغرب والتي شكلت فترات من التعايش وشهدت كذلك كبوات من التناحر وهل الامر بشقية جديد على البشرية؟ ولماذا يراد في الاونة الأخيرة " لسر الاثم " آن يعمل ضاربا ذات اليمين وذات اليسار بين أبناء " آدم وحواء " مفرقا اياهم بدلا عن تجميعهم وباذرا بينهم بذور الكراهية عوضا عن جوهر المحبة وتقاوى السلام، لماذا يراد بالزؤان في حقولهم أن يخنق الحنطة؟

وعندي أيضًا أنه إذا كانت منطقة الشرق الأوسط بوجه عام وبلادنا العربية بصورة خاصة هي المقر والمستقر والمسرح لأحداث الخلاف كما يراد لها فإن التركيز في مناقشة موضوعات هذا العمل ستركز بوجه خاص على الفعاليات التي عاشتها وتعيشها المنطقة الآن في التاريخ الوسيط أو الحديث كنماذج حية للتعايش المشترك ولالقاء الضوء على الإيجابيات لتعظيمها وللابتعاد قدر المستطاع عن السلبيات وتحجيمها.

وفي ذهني تحضرني وثيقة الارشاد الرسولي الصادرُ عن البابا يوحنا بولس الثاني تحت عنوان " رجاء جديد للبنان " في العاشر من مايو " ايار " من عام ١٩٩٧ في مناسبة زيارته الرعوية للبنان، وإن كانت الوثيقة موجهة للشعب اللبناني بمسلميه ومسيحية خاصة فإنه يشير إلى شعوب المنطقة العربية عامة.

تقول الوثيقة تحت عنوان **"التضامن مع العالم العربي"** إن الكنيسة الكاثوليكية منفتحة على الحوار والتعاون مع المسلمين في لبنان وتريد أن تكون منفتحة على الحوار والتعاون مع مسلمي سائر البلدان العربية ولبنان جزء لا يتجزأ منه وتضيف في الواقع أن مصيرا واحدا يربط المسيحيين والمسلمين في لبنان وسائر بلدان المنطقة. وكل ثقافة خاصة لا تزال تحمل طابع ما رمزنة به على الصعيد الديني وغير الديني، الحضارات المختلفة التي تعاقبت على آراضيهم.

ومسيحيو لبنان وكامل العالم العربي وهم فخورون بتراثهم يسهمون إسهاما ناشطا في التطور الثقافي.

كما أن المسيحيين في جميع البلدان ومن جميع الثقافات كافة حيث انتشروا " لايتمايزون عن سائر الناس لا في البلد ولا في اللغة ولا في العادات المحلية لذلك فاننا نشدد على ضرورة المحافظة على علاقاتهم التضامنية مع العالم العربي وتوطيدها وندعوهم لحوار صادق وعميق مع المسلمين.

وتكمل الوثيقة: أن مسيحي الشرق الأوسط ومسلميه وهم يعيشون في المنطقة ذاتها وقد عرفوا في تاريخهم أيام عز وأيام بؤس مدعوون إلى أن يبنوا معًا مستقبل عيش مشترك، وتعاون يهدف إلى تطوير شعوبهم تطويرًا إنسانيًا وأخلاقيًا.

ما أبعد حديث الجسور هذا عن حديث الجدران الذي انطلق ذات يوم أليم داعيا "يا شعب الفرنجة. شعب الله المحبوب المختار... لقد جاءت من تخوم فلسطين ومن مدينة القسطنطينية أنباء محزنة تعلن أن جنسًا لعينًا أبعد ما يكون عن الله قد طغى وبغى في تلك البلاد بلاد المسيحيين وعلى من تقع إذن تبعة الانتقام لهذه المظالم واستعادة تلك الاصقاع إذا لم تقع عليكم،أنتم يا من حباكم الله أكثر من أي قوم آخرين بالمجد في القتال وبالبسالة العظيمة وبالقدرة على إذلال رؤوس من يقفون في وجوهكم؟

وما أقرب ذلك الحديث إلى حديث صراع الحضارات، والذي يقدم فيه مشهدي "الإسلام والغرب" على أنهما ضدان لا يلتقيان وصنوان لا يتفقان في معركة مستمرة تنتهي دائمًا بانتصار الشخصية الطيبة، والتي لاشك آنها الغربية حيث لا وقت كما يرى الدكتور إدوارد سعيد في حديثه عن "صدام الجهالات" لا وقت لدى صموئيل هنتنجتون أو برنارد لويس لمتسع من الوقت لدراسة الحركيات الداخلية في كل من الحضارتين وما فيهما من التعددية أو النظر إلى آن التنافس الرئيسي في غالبية الثقافات الحديثة يدور على تعريف أو تفسير كل من الحضارتين.

كما لا يعيران انتباها إلى احتمال خطير وهو أن التطلع للكلام عن حضارة أو ديانة بأكملها ينم عن الكثير من الديماجوجية والجهل.

وفي الحديث عن الجسور يتحتم الوقوف أمام شخوص مثلوا ـ وعن جدارة ـ معابر حضارية بين الشرق والغرب، تجدهم في العصور الوسيطة وكذا في قلب آمريكا الثائرة الفائرة اليوم والتي لا تحتمل أن ترى في الإطار الفكري غير ذاتها حضارة ونهجا حياتيا.

نتوقف أمام نماذج مثل فرانسيس الاسيزي Francis of Assisi "١٨٨١م ـ ١٢٢٦م" وريموند لول Reymond Lull وقد خلفا في تاريخ المسيحية في العصور الوسطى صفحات مشرقة عن العلاقات بين المسيحية والإسلام، وكان الباعث لكل منهما على ما فعل دينيا خالصا من التفاهم بين المسلمين والمسيحيين.

ففرانسيس الاسيزي أراد أن يكسب ثقة المسلمين بخدماته الفعالة الصادقة فلقى من قادة المسلمين في عهده كل ترحيب وصداقة.

أما ريموند لول فقد كان عالما، أراد أن يعرف الإسلام معرفة مباشرة بمعرفة اللغة العربية، والثقافة الإسلامية، وإلى هذا الرجل يرجع الفضل في تشجيع دراسة اللغة العربية في جامعات أوربا، وقد كتب مؤلفات بالعربية للقارئ العربي المسلم خاصة، وسافر إلى شمال إفريقيا ليتصل اتصالاً مباشرًا بالمسلمين هناك ويعتقد أنه مات على يد جماعة من الغوغاء في تلك البلاد.

أما حظ الولايات المتحدة من أمثال الاسيزي ولول فلم يكن معدما ويكفي الاشارة إلى "جون اسبوسيتو" مدير مركز التفاهم الإسلامي المسيحي في جامعة جورج تاون الكاثوليكية في العاصمة الأمريكية واشنطن، والتي يشرف عليها الآباء اليسوعيين وقد سعى الرجل من خلال دراساته العديدة إلى إبراء ساحة الإسلام من الطبيعة العدوانية ووجه النشاط البحثي لهذا المركز لخدمة التقارب بين الإسلام والغرب.

وقد نشر له على مدى ما يزيد عن عقدين من الزمان ستة كتب عن الإسلام من بينها كتابه "التهديد الإسلامي أسطورة أم حقيقة"؟، كمحاولة صادقة منه لتفريغ مقولة المواجهة الإسلامية المرتقبة مع الغرب من محتواها على أسس علمية تقوم على الفهم العميق لمختلف أبعاد ظاهرة الإحياء الإسلامي ويتساءل "اسبوستو" متحديا برنارد لويس والمفكرين الذين يهاجمون الإسلام: هل يمكن آن نتسامح إزاء إطلاق تعميمات مماثلة عند تحليل وتفسير تصرفات ودوافع الغرب؟ وكيف ستكون نظرتنا للمقالات التي تتحدث عن جذور الغضب المسيحي أو الغضب اليهودي؟ وعن القنبلة النووية المسيحية أو مثيلتها اليهودية؟

واللافت للنظر آن "اسبوستو" لم يتردد في الإجابة عن أهم الأسئلة التي طرحها من خلال دراسته حول الأسباب التي دفعت ولاتزال بالحكومات الغربية ووسائل إعلامها وعلمائها لمعالجة موضوع العلاقات بين الإسلام والغرب بهذا المنظور الذي وصفه بأنه منظور سياسي وأيديولوجي وانتقائي ينطلق من تحيزات قبلية وقوالب نمطية جاهزة.

هؤلاء وغيرهم من دعاة تجسير الجسور سنحاول التوقف أمام محاولاتهم الجادة لإعمال "سر المصالحة" بين الأمم والشعوب عوضًا عن إطلاق "سر الاثم" ليخرب ويدمر ما قد بني عبر الزمان من تاريخ مشترك للإنسان والإنسانية.

وفي إطار تعدد الجسور لا الجدارن يلزم الحديث عن المسيحيين العرب ودورهم كمعبر بين ما يطلق عليه جوازا "الغرب المسيحي" و"الشرق الإسلامي" وهو توصيف غير آمين وغير دقيق علميًا؛ فلا غرب مسيحي ولا شرق إسلامي بالمنطلق فجذور المسيحية تجدها في الشرق، وتأثيرات الحضارة العربية وعلوم المتكلمين الإسلاميين حاضرة في الأدبيات الغربية منذ أن ترجمت العلوم والآداب العربية إلى اللاتينية عبر اللغة اليونانية على يد المسيحيين العرب والسريان منهم على نحو خاص.

ودور المسيحيين العرب وحضورهم الفاعل في بناء الحضارة العربية والإسلامية خير دفاع أمام آصحاب القول بحتمية الصراع بين الأديان وانعدام إمكانية فرصة التعايش المشترك بين أصحاب الديانات المختلفة كذلك يصبح من المفيد الحديث عن الخسارة الناجمة عن الهجرة القاتلة أي هجرة المسيحيين العرب من أوطانهم العربية إلى بلاد المهجر وإن كانت ظاهرة الهجرة تشمل المسيحيين والمسلمين في العالم العربي على السواء إلا آنه انطلاقا من حكم "الأقلية العددية" تصب عملية الهجرة في غير الصالح الحضاري لميزان العرب وتعطي المتشدقين في المنطقة وآصحاب النزعات اليمينية الأصولية حول العالم مبررًا لتآكيد رواياتهم المنحولة.

ويبقى في النهاية ضرورة التأمل مليًا في الاطروحات التي تخفي في طيتها ما يخشى منه مثل أحاديث النموذج الغربي المطلق والتي يرى البعض أنها تبشر بالمجتمع المثالي في حين نجد مفكر بقدر:كارل بوبرر يرى أن المجتمع المثالي مستحيل وأن التساؤل عن الرغبة في سيادة وريادة نسق حضاري واحد هو أقرب إلى الأحاديث الشوفينية منه إلى الواقعية فالحضارات تتكامل وتتواصل في طبقات وهذه الطبقات ليست بالضرورة متراكمة ترتاح فيها طبقة فوق طبقة لكنها بحال من الأحوال تشكل سبيكة إنسانية يتمثل فيها مزيج من إنسان

الماضي والحاضر في روح بالغة التعقيد يتجاور فيها القلق مع سلام النفس والعدمية وعبادة المطلق والتمرد والخضوع كذلك البرامج العلمية والمثالية التي توشك أن تكون انفصالا عن الواقع كما في المشروع الصدامي لهنتجتون والذي اعتبر الدستور والعقد الالهي للفكر اليميني الأصولي وبخاصة في الولايات المتحدة الأمريكية.

"جسور لا جدران" هكذا تنطلق دعوة الحوار والجوار عوضا عن الموقف الاستعلائي الأشد غطرسة في تاريخ الغرب والذي تبدى في المقولة الشهيرة للشاعر كيبلنج Kipling " الشرق شرق والغرب غرب، ولن يلتقي الاثنان حتى تلتقي الأرض والسماء عند عرش الله، عرش الدنيا العظيم ".

هذا الكتاب محاولة للسير على الأرض قليلاً بدلاً من التحليق فوق سحاب الكبرياء، دعوة للتفكير في أمر النهضة الإنسانية عبر دروس الماضي ووقائع الحاضر، بمنطق الواقع وبمنهج العلم، دون الخوف من فتح النوافذ وبناء الجسور وبعيداً عن الانتقائية وانشادا للكمال من خلال الإعلان عن شعار إنساني بحت يبقى على الدوام سر المصالحة بين البشر ألا وهو "أنت أخي وأنا أحبك" فالحب جسر تتحطم عليه أشباح الكراهية، وقديما قال الفيلسوف "اوغسطينوس" آحبب ثم افعل ما تشاء فإن الذي يحب لا يفعل إلا الخير كل الخير"

إميل أمين
القاهرة
في ٢٠٠٦/٩/١١

# الكنيسة الكاثوليكية
# والعالمين العربي والإسلامي

"ولئن كان عبر الزمان قد وقع من المنازعات والعداوات بين المسيحيين والمسلمين فإن المجمع يهيب بالجميع أن ينسوا الماضي وأن يعملوا باجتهاد صادق سبيلا للتفاهم فيما بينهم وأن يتماسكوا من أجل جميع الناس على حماية وتعزيز العدالة الاجتماعية والقيم الأدبية والسلام والحرية"

المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني روما ١٩٦٢ - ١٩٦٥

في الخامس والعشرين من يناير سنة ١٩٥٩ أعلن طيب الذكر البابا يوحنا الثالث والعشرون عن الدعوة لعقد مجمع مسكوني، وهذا المجمع على حد ما جاء في البلاغ الصحفي الذي صدر عن دوائر الفاتيكان، في تلك المناسبة لم يكن الغرض من عقده في ذهن الحبر الأعظم تحقيق الخير الروحي للشعب المسيحي فحسب وإنما أيضًا الدعوة إلى الوحدة، التي تتوق الكثير من الأنفس إليها "اليوم" في أنحاء المعمورة.

وكان المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني نقطة تحول جذرية في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية جهة العالم برمته، المؤمنين منه بالأديان الداعية إلى التوحيد والمختلفين فيه ولهم عقائدهم ومذاهبهم الخاصة.

كان المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني "١٩٦٢- ١٩٦٥ " نقلة فكرية سبقت العالم المتصارع بسنوات طوال قبل أن تطفو على السطح احاديث التصادم ومنهجيات الشقاق.

ولعل الكنيسة الكاثوليكية على وجه الخصوص والتي خبرت أحداث وذكريات فيها من الألم، الشئ الذي يذكر كانت تعلن للعالم المنقسم إلى معسكرين شرقي وغربي وقت انعقاد المجمع أنه قد حان الآن موعد الوفاق بدلا عن الفراق.

وقد كان التصريح عن علاقة الكنيسة الكاثوليكية مع الديانات غير الرسمية هو أول دعوة تنطلق في القرن العشرين لإقامة حالة حوار حقيقي مع أصحاب الأديان غير المسيحية، وقد صدر هذا التصريح تلبية لرغبة آيدها البابا يوحنا الثالث والعشرين وهدف منه إلى استئصال كل جذور الكراهية والحقد التي طالما تسببت في الاضطهادات وبخاصة عندما تتخذ النصوص الدينية ذريعة لذلك.

وجدير بنا أن نمعن النظر في الفقرة التي أشارت إلى الدين الإسلامي وأن نتأملها فهي كانت ولا زالت حدثًا تاريخيًا مهمًا للغاية فلأول مرة عبر التاريخ تُعلن الكنيسة الكاثوليكية عن موقفها إزاء المبادئ الإسلامية الأساسية في وضوح ودقة.

يقول التمهيد الخاص بالوثيقة أنه في عصرنا الذي يتزايد فيه يومًا بعد يوم اتحاد الجنس البشري وتتوثق باطراد علاقات الشعوب تمعن الكنيسة النظر فيما ينبغي أن تكون عليه علاقتها بالأديان غير المسيحية.

وفي رسالتها الرامية إلى تعزيز أواصر الوحدة والمحبة بين البشر والشعوب فانها تتفهم بادئ ذي بدء في رؤية، وتعمق الروابط المشتركة بين الناس، التي تدفعهم إلى أن يحيوا معًا مصيرهم المشترك، فالشعوب كلها جماعة واحدة أصلها واحد أسكنها الله وجه الأرض كلها تتجه نحو غاية واحدة قصوى هي الله الذي يشمل الكل بعنايته وبآيات لطفه وتدابير الخلاص حتى يجتمع المختارون في المدينة المقدسة التي يضيئها مجد الله وفي نوره تسلك الشعوب جميعًا.

أما الفقرة الخاصة بالدين الإسلامي فيستهلها التصريح بالقول "تنظر الكنيسة بتقدير إلى المسلمين الذين يعبدون الله الواحد الأحد الحي القيوم، الرحمن القدير، فاطر السماوات والأرض الذي كلم الناس.

ويضيف التصريح "إنهم يجتهدون في التسليم بكل نفوسهم لأحكام الله وان خفيت مقاصده كما سلم إبراهيم الذي يفخر الدين الإسلامي الانتساب إليه وبرغم انهم لا يعترفون بيسوع إلهًا فإنهم يكرمونه نبيًا ويكرمون أمه مريم العذراء ويذكرونها في خشوع ثم انهم ينتظرون يوم الدين الذي يجازي الله فيه جميع الناس عندما يبعثون إحياء من أجل هذا يقدرون الحياة الأدبية ويعبدون الله بالصلاة والصوم.

ويختتم التصريح جهة الإسلام كدين وعقيدة بالقول "ولئن كان عبر الزمان قد وقعت من المنازعات والعداوات بين المسيحيين والمسلمين فإن المجمع يهيب بالجميع أن ينسوا الماضي وأن يعملوا باجتهاد صادق سبيلا للتفاهم فيما بينهم وأن يتماسكوا من أجل جميع الناس على حماية وتعزيز العدالة الاجتماعية والقيم الأدبية والسلام والحرية.

والمؤكد أن هناك حاجة حقيقية في الغرب والشرق لإعادة قراءة التصريح السابق وهو اعتراف صريح مريح بأن ما يعبده المسلمون هو الله الحي القيوم إله إبراهيم وإسحق ويعقوب وما أبعد هذا التوجه الكاثوليكي عن مابثته شبكة NBC الأمريكية الإخبارية على لسان أحد جنرالات التعصب اليميني الأمريكي المقيت "ويليام بويكين" أواخر العام ٢٠٠٣ وهو يتحدث مرتديا زيه

العسكري في بعض الجماعات المسيحية الأمريكية الخارجة عن المذهب الكاثوليكي والذاهبة في الشطط الإيماني مذاهب تورد إلى التهلكة باقتدار.

قال بويكين عن الإسلام والمسلمين "إنهم يريدون تدميرنا لأننا شعب مسيحي وإنهم عدو روحي وآميرهم آمير الظلام و يدعى الشيطان أن إلهنا حقيقي آما إله المسلمين فهو مجرد وثن.

وما آبعد هذا الحوار أيضًا عما جاء في وثيقة الإرشاد الرسولي "رجاء جديد للبناء" الصادر عام ١٩٩٧ والذي أشار إلى العالمين العربي والإسلامي.

يقول طيب الذكر البابا يوحنا بولس الثاني الكبير "انني آحث اليوم جميع الكاثوليك وأدعو في الوقت عينه سائر المسيحيين وآصحاب الارادات الطيبة في العالم للقيام بأعمال دنيوية وتقلد سلاح السلام والعدالة وآنه من الأمور الملحة تطوير وتنمية سلاح الضمير وتربية الضمائر على السلام والمصالحة والوفاق بين الناس.

ويضيف قداسته "ينبغي آلا يغيب آبدًا عن البال آن القيام بمبادرة سلام قد يجرد الخصم من سلاحه وغالبًا ما يحمله على التجاوب بإيجاب ويده الممدودة لأن السلام الذي هو الخير الأسمى يميل إلى الانتشار، ويذكر لنا التاريخ الديني آن قديسين كانوا ينبوع المصالحة بمواقفهم المسالمة المرتكزة على الصلاة وعلى الاقتداء بالسيد المسيح "رسول السلام".

والمعروف أن الفاتيكان قد آنشأ عقب المجمع المسكوني الثاني لجان للحوار بين الأديان وأولى اهتمامًا خاصًا بالعالم الإسلامي وناهيك عن جسات الحوار المتبادل فإن نظرة سريعة على الخطابات المتبادلة بين الطرفين في مناسبات الأعياد والمواسم الروحية تشير إلى آي مدى تتطلع الكنيسة الكاثوليكية إلى تعميق آصول الحوار والجوار مع العالم العربي والإسلامي، واكتشاف النوايا الطيبة عند بني البشر عامة، وعند آصحاب التوحيد بصورة خاصة. وفي هذا الإطار درج رئيس المجلس البابوي للحوار آن يوجه رسالة إلى العالم الإسلامي في آهم المواقيت الإيمانية عند المسلمين مثل شهر رمضان وعيد الفطر إضافة إلى عيد الأضحى.

وآحسب آنه يجدر بنا هنا الإشارة إلى واحدة من تلك الرسائل التي تعبر بعمق عن صدق النوايا من المؤسسة الفاتيكانية تجاه الآخر " المسلم ".

وقد جاء الاختيار لتلك الرسالة تحديدًا لأنها رمزية أكثر منها حصرية، فقد صدرت في أواخر ديسمبر من عام ٢٠٠١ أي بعد نحو ثلاثة شهور من أحداث الحادي عشر من سبتمبر والذي كان عند البعض عاملاً محفزا لإثارة العداوات والكراهات بين أصحاب التوحيد مرة ثانية بعد أن حسب الجميع أن الحروب من جراء النزعات الدينية المنحولة قد ولت إلى غير رجعة.

كانت الرسالة هي " الرابعة والثلاثين " على التوالي حيث وجه الكاردينال فرانسيس حديثه للعالم الإسلامي تحت عنوان "توطيد القيم البشرية في عصر تقني" قال فيها:

"أيها الأصدقاء المسلمون" هكذا يستهل الكاردينال الكاثوليكي رسالته بوصف المسلمين بالأصدقاء وفي الوقت نفسه كان القسم الأعظم من الولايات المتحدة وقطاعات كبرى من أوربا ترى في المسلمين "الإرهابيين" وليسوا الأصدقاء "أتوجه إليكم هذه السنة أيضًا بمناسبة حلول شهر رمضان المبارك وعيد الفطر السعيد لأعبر لكم عن مشاركتي فرحتكم بهذه المناسبات المجيدة ورسالتي هذه عربون تقدير وصداقة من قبل الكنيسة الكاثوليكية.

وإذ أتوجه إليكم الآن وقد أمضيتم مدة مارستم خلالها فرضًا دينيًا يزيدكم قربا من الله العظيم لا يسعني إلا أن أشير بادئ ذي بدء إلى الأحداث المأساوية التي عاشها عالمنا مؤخرًا والتي مست بصورة خاصة قلوب مؤمني الأديان التوحيدية والمؤمنون الذين يعبدون الله الواحد الأحد مدعوون من جهتهم ليكونوا في العالم بناة حضارة مؤسسة على قيم السلام والعدل والوحدة والمحبة والحوار والحرية والتعاون والأخوة بين الأفراد وبين الشعوب، وإننا نأمل أن تقوم مبادرات الاخوة بين المؤمنين وذوي الارادة الطيبة بتوجيه المجتمعات نحو دروب جديدة ضمن احترام القيم الإنسانية وتوطيدها.

وبدون الإغراق في تفاصيل الخطاب فقد جاءت الرسالة في وقت حرج ومؤلم استدعى إلى الاذهان الذكريات المريرة، واذا كان حملة البنادق في ذلك التوقيت قد توجهوا شرقًا للقصف والقتل والتدمير، كان الكاردينال ارينزي يدعو في خطابه " إلى حوار حقيقي شامل بين الديانات والحضارات لا يقوم فقط على المؤتمرات واللقاءات والدعايات بل على تطوير برنامج تربوي عالمي لإعادة تثقيف جميع المؤمنين على السلام واحترام الديانات الأخرى بحيث يصبح كل إنسان أمين لدينه، ومنفتح على ديانة الآخر دون أحكام مسبقة.

أما طيب الذكر البابا يوحنا بولس الثاني فقد ذهب إلى ما وراء الطبيعي في تلك الأوقات ذهب البابا الكاثوليكي إلى عمق الروحانية التي يجدها العالم الإسلامي في الصوم وطالب بأن يكون الرابع عشر من ديسمبر من عام ٢٠٠١ والموافق الجمعة الأخيرة من شهر رمضان يوم صلاة وصوم لكافة المسيحيين في العالم للتضامن مع "إخواننا المسلمين" والصلاة من أجل السلام والاستقرار في عالم مضطرب.

قال البابا في دعوته "أنه في ظل الأوضاع الدولية المتأزمة والمقلقة لايمكننا عدم تذكر ثقل الآلام التي نكبت ولا تزال إخواننا وآخواتنا في العالم".

وإذا كان البابا قد أشار إلى آلاف الضحايا البريئة في هجمات الحادي عشر من سبتمبر فإنه قد أشار أيضًا إلى الأعداد التي لا تحصى من الأشخاص الذين أرغموا على مغادرة منازلهم تائهين على طرقات المجهول وأحيانا كثيرة تجد بينهم مسنون وأطفال ونساء معرضون للموت جوعًا وبردًا وكان قداسته يقصد ضحايا الحرب الأمريكية والهجمات العسكرية على أفغانستان.

لذا جاءت دعوة البابا كجسر حقيقي بين العالم الكاثوليكي والعالم الإسلامي في وقت قصفت فيه الجسور ودمرت المعابر بين الكثيرين، جاءت دعوة بابا روما للصوم والصلاة كي يمنح الله تعالى العالم سلامًا مؤسسا على العدالة ويسمح بتجنب الصراعات التي تدمي قلب العالم وكل ما يحرم المؤمن نفسه منه في ذلك اليوم فليضعه بتصرف الفقراء وخصوصا من يعانون من نتائج الحرب والإرهاب.

ولم تقتصر الدعوة إلى الصوم فقط بل تخطى الأمر ذلك من خلال إعلان قداسة البابا عن نيته "التي تمت لاحقًا" في دعوة ممثلى الديانات في العالم للمجئ إلى اسيزي في أواخر شهر يناير من عام ٢٠٠٢ للصلاة من أجل تخطي الألم والمعاناة ولتعزيز أسس السلام الحقيقي والرغبة في اللقاء معًا وبنوع خاص بين المسيحيين والمسلمين، وخلص قداسته إلى أن الأديان لا يجب أن تصبح أبدا سببا للصراع والحقد والعنف وشدد على أن من يقبل في داخله الله الصالح والرحيم لا يسعه الا أن ينبذ من قلبه كل أشكال الضغينة والحقد والعدائية.

والمؤكد أن الأسرة البشرية كما يرى المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني قد بلغت فترة حاسمة من تاريخ تطورها في السنوات الأخيرة من القرن العشرين، وهي السنوات التي لازالت فيها الحروب تنهال علينا مخربة تارة

ومهددة تارة أخرى والإنسانية إذ هي تتجمع شيئًا فشيئًا وتزداد وعيًا لوحدتها في كل مكان عليها أن تنهض بمهمة لا سبيل إلى إنجازها إلا إذا ارتد الجميع إلى السلام الحقيقي بروح جديدة.

وفي سياق الحديث عن الروح الجديدة هذه لا يمكن إغفال مجموع الزيارات التي قام بها طيب الذكر البابا يوحنا بولس الثاني للعالمين العربي والإسلامي وكيف أنها كانت نقلة تصالحية في علاقة الكنيسة الكاثوليكية بالعالمين العربي والإسلامي.

وفي إطار المراجعات الكنسية المستمرة في نهاية القرن الماضي جاء الاعتذار عن الحروب الصليبية وكان هذا الاعتذار موجهًا للعالم العربي والإسلامي.

وفي رحلات البابا وأسفاره الكثيرة أكد دائمًا على ضرورة الحوار والعمل على تشجيع التلاقي المسيحي - الإسلامي وفي زيارته للأزهر الشريف في مطلع القرن الجديد كان البابا يوحنا بولس الثاني يعلن أمام الملأ أن الإسلام قدم العلم والمعرفة للعالم وأن الخالق أعطى الإنسان الأرض لحراستها وتعميرها وأنه لمن المهم أن يحدث اللقاء مع الشخصيات التي تمثل الإسلام في مصر والعالم، مضيفًا أن مستقبل العالم أصبح في يد العلماء الذين يتحاورون بين الأديان كما قال المعلم الكبير توما الاكويني.

ومن مصر إلى الأراضي المقدسة في فلسطين مرورًا بدمشق كان البابا يُعبّد الطريق الذي تعرض للتصدع وفعلت به الشقاقات فعلها وكان مشهد البابا يُذكّر من جديد بالاعتذار الأول عن الحروب الصليبية وعن الكوارث التي جلبتها للعالم الغربي والشرقي على السواء وذلك عندما جاء القديس فرانسيس الاسيزي وقابل الملك الكامل وكانت هذه المقابلة كما يقول أحد المؤرخين العرب تساوي مكسب الانتصار في ٤٠ موقعة حربية إذ خلّصت الأسرى واحترمت الموتى وكان هذا اعتذارًا مسيحيًا عالميًا في ذلك الوقت.

وقد حدث اعتذار ثان من قبل الكنيسة جهة صلاح الدين لأنه بعد أن انتصر لم يشأ أن ينتقم كما فعل أولئك "الفرنجة" بل أعطاهم درسًا جعل جميع مؤرخي الغرب يذكرونه في كتاباتهم وقد كان أن قدمت لصلاح الدين الاعتذارات والاحترامات اللائقة بما فعله سلطان المسلمين.

ومما لا شك فيه أن منعطف المقاومة الإسلامية في آفغانستان للمعسكر الشيوعي العدو الأول للبابا بصورة شخصية وهو القادم من بولندا الرازحة تحت نير الاحتلال الايديولوجي الشيوعي والعدو الأكبر للإيمان الكاثوليكي والدور الذي قامت به تلك المقاومة لإسقاط إمبراطورية الشر جعلت البابا والكنيسة الكاثوليكية من خلفه ترى جوامع جديدة تقرّب من المسافة بين المسيحية والإسلام.

وقد وجد الفاتيكان ذاته نصيرًا للإسلام والمسلمين من آجل الدفاع عن الإيمان ضد التيارات العلمانية التي شكلت موجات من التفلت المتتالية الساعية لحل عقد الضوابط الأخلاقية على صعيد الفرد والجماعة وكان المشهد الواضح للتحالف الكاثوليكي - الإسلامي وبخاصة في وجه الولايات المتحدة في المؤتمر الدولي حول الأسرة والسكان الذي عقد في القاهرة في سبتمبر من عام ١٩٩٥ حيث وجد الفاتيكان في الإسلام حليفًا استراتيجيًا لإسقاط شرعية الإجهاض.

وعندما أحالت بلدية روما إلى البابا الطلب الذي تلقته من سفارات الدول الإسلامية في إيطاليا لبناء مسجد ومركز إسلامي، رد البابا ناصحًا بلدية روما بالموافقة دون تردد، وبالفعل فقد قدمت البلدية حوالي ٢٠ آلف متر مربع هدية لبناء المسجد والمركز الثقافي الإسلامي الذي انجز بمساهمات من عدة دول إسلامية وبتمويل آساسي من المملكة العربية السعودية.

وغني عن القول أن العلاقة بين العالمين الإسلامي والمسيحي لم تكن بالمطلق سخاءً رخاءً وآن البابا لم يغب عن ناظريه أن الذاكرة عند الطرفين كانت ولازالت بصورة آو بأخرى مثخنة بجراح الألم إلا أن البابا الكاثوليكي كان على الدوام يرى آن الأمل موجود ومعقود على رجالات الحوار والسلام فالأمل عند البابا قوة دفع معنوية كبيرة وهو في هذا الإطار يخالف التوجه الفلسفي المنسوب للفيلسوف الفرنسي "رينيه ديكارت" من القرن التاسع عشر "أنا أفكر إذن أنا موجود".

يقول طيب الذكر يوحنا بولس الثاني في كتابه "اجتياز عتبة الأمل" أن هذه النظرية قلبت فلسفة توما الاكويني من القرن الثالث عشر راسا على عقب ذلك آن الوجود يأتي قبل التفكير.

وهنا يرى البابا آنه لو آن ديكارت قال: آنا موجود إذن آنا أفكر لاختلف تاريخ العالم في الثلاثمائة سنة الماضية اختلافًا جذريًا.

وفي زيارات البابا للعالم العربي والإسلامي كانت هذه الرؤية خلفية لجولاته الروحية، والتي كانت بمثابة حج روحي إلى أرض المشرق أرض الآباء إبراهيم وإسحق ويعقوب بمعنى أن الهدف من وراء تلك الجولات كان تصحيح مسيرة التاريخ من خلال اعادة الاولوية لخالق الوجود قبل الوجود والى الإيمان بالله قبل الايمان بالإنسان وبالفكر الإنساني وهو منطلق يتفق فيه إلى حد بعيد مع التوجهات الذهنية الإسلامية والعربية.

وفي هذا الجو الباحث عن الشراكة الإنسانية قام طيب الذكر البابا يوحنا بولس الثاني اثناء زيارته لسوريا " الاحد الموافق ٦- ٥- ٢٠٠١ بإحياء القداس الالهي في استاد العباسيين الواقع عند المدخل الشمالي للعاصمة السورية وأعقبه بزيارة غير مسبوقة للجامع الأموي في دمشق وذلك في دعوة للتاخي والتآزر بين المسلمين والمسيحيين وقد اعتبر المراقبون أن دخول الحبر الأعظم إلى الجامع الاموي أو المسجد الكبير الواقع في قلب المدينة القديمة المحطة الأهم في زيارته ذلك لأنه بهذا سيكون أول بابا يدخل مسجداً حيث زار قداسته ضريح يوحنا المعمدان الموجود بداخله.

وقد رأى فضيلة الشيخ أحمد كفتارو مفتي سوريا في ذلك الوقت أن زيارة البابا لسوريا وللمسجد الاموي على وجه التحديد هي تعبير عن احترامه وثقته بالنموذج الحياتي الآمن في ظل التعايش والتسامح بين المسلمين والمسيحيين الذي عرفة تاريخ سوريا.

والشاهد أن زيارات البابا للدول العربية والإسلامية والتصريحات التي سبقتها لم تكن أهدافا مرحلية ينتهي مفعولها بانتهاء الغرض منها كما يقال لكنه واقع حقيقي ممتد والدلالة على ذلك تمثلت في النداء الذي وجهه البابا في أوائل شهر يناير من عام ٢٠٠٤ من أجل السلام داعيًا المسيحيين والمسلمين واليهود أيضًا العمل معًا من أجل إنهاء الحروب التي لا تنتهي في العالم".

ففي السابع عشر من يناير من عام ٢٠٠٤ وخلال حفل موسيقي وتحت شعار "المصالحة بين الأديان الثلاث" في الفاتيكان قال طيب الذكر البابا يوحنا بولس أمام ممثلين عن الأديان:

لا يمكن للمسيحيين والمسلمين واليهود أن يقبلوا بأن يستولى الحقد على الأرض وأن تفتك بالبشرية حروب لا نهاية لها، علينا أن نجد في داخلنا الشجاعة الكافية من أجل السلام.

وحث البابا يومها أتباع الديانات الثلاثة على أن يجدوا هذه المصالحة في جذورهم المشتركة قائلاً "هناك جوانب مضيئة وأخرى مظلمة في قصة العلاقات بين اليهود والمسيحيين والمسلمين وللأسف فإنها شهدت لحظات مؤلمة والمرء يشعر اليوم بالحاجة الملحة للمصالحة بين المؤمنين بالاله الواحد.

وقد جلس البابا خلال الحفل بين حاخام روما الأكبر إيليوتوف من اليمين وإمام مسجد روما عبد الوهاب حسين جمعه إلى اليسار وسط شخصيات كاثوليكية وإسلامية ويهودية من شتى أنحاء العالم.

وفي منتصف أكتوبر من عام ٢٠٠٤ أيضًا وبتأثير لا ينكر من الكنيسة الكاثوليكية الرومانية كانت وزراة الخارجية الايطالية تستضيف لقاء حول موضوع "الإسلام والسلام" بحضور ممثلين عن اهم ثلاث منظمات إسلامية دولية هي منظمة المؤتمر الإسلامي وجمعية الدعوة الإسلامية العالمية والرابطة الإسلامية العالمية، أما الهدف من رواء تلك الحورات والندوات واللقاءات فهو إعادة إطلاق الحوار بين الثقافات والأديان والحضارات المتواجدة في حوض البحر المتوسط وإتاحة الفرصة لإلقاء المزيد من الضوء حول رفض الأديان للعنف والإرهاب وهو مشهد ليس بغريب في ظل البابا الذي جعل من المصالحة مع إتباع الديانات الأخرى إحدى العلامات البارزة منذ جلوسه على كرسي البابوية قبل ٢٧ عامًا وطلب الصفح أكثر من مرة باسم الكنيسة الكاثوليكية من المسلمين بسبب الحروب الصليبية التي استهدفتهم ومن اليهود بسبب الخطايا السابقة تجاههم.

ولم يكن من الغريب أو المثير كذلك أن تصلي الجماعة المسلمة في إيطاليا من أجل قداسة البابا في ثلاثة مساجد إيطالية اثناء صلاة الجمعة في شهر فبراير من عام ٢٠٠٥ بسبب ظروف مرض البابا وطلبًا لشفائه وذلك تلبية لمبادرة اطلقها أمام نابولي عبد الله قمر وأن يصرح المسئول عن الجماعة المسلمة في محافظة "سيينا" فراس جبارين الناشط في مجال تعزيز الحوار بين الأديان بقوله "أن المسلمين يريدون أن يعربوا عن تضامنهم مع هذا الرجل العظيم" وأن يصرح الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر في مصر الدكتور محمد سيد طنطاوي بقوله "أنه رجل سلام ومحبة وأكن له كل حب وتقدير وأدعو الله العلي القدير أن يتم له الشفاء ويزيده عافية".

وقد لمست تلك الصلوات قلب البابا المريض وقتها قبل أن يلقى ربه ويذهب إلى بيت الأب فشكر عليها الجميع وذلك في رسالة تلاها باسمه المونسنيور ليوناردو ساندري خلال صلاة الأحد الثاني من شهر مارس وقال البابا "أود التعبير عن امتنان خاص لمن آراد المجئ للصلاة هنا في المستشفى ذلك شكل بالنسبة لي اشارة تبعث على الارتياح اشكر الله عليها.

هذه هي الجسور المتبادلة بين الكنيسة والعالم الإسلامي الذي ينشد الكثيرين في ذات الوقت إقامة الجدران في طريقه.

# فرنسيس الاسيزي

## ١١٨١م - ١٢٢٦م

## قديس ضد الحروب الصليبية

"ليس هم الشرقيون الذين يسدون الطريق إلى الأرض المقدسة بل غضب الله العادل لذا تبصروا وانظروا في حياتكم ألا تدعو مشاغل وهموم هذه الدنيا تنسيكم الله وتجعلكم تحيدون عن وصاياه لأن كل الذين ينسونه ويخرجون عن طاعته يبغضهم الله ولا يعود يذكرهم "

حتى الساعة يبقى تعبير الحروب الصليبية عالقًا في الأذهان، وإن كانت العرب قد أطلقت عليها حروب الفرنجة، فيما التسمية الصليبية جاءتنا من كتابات غربية لا شرقية.

وقد اشتملت الحروب الصليبية وكانت حروبا، أعلنت باسم الدين ولكن الدين في تلك الأوقات كان شعار الحياة العامة في جميع مظاهرها في العصور الوسطى.

وبهذا يمكن القول بأن الحروب الصليبية لم تكن حروبا دينية بالمعنى الدقيق، فلم يكن الغرض منها نشر المسيحية بين غير المسيحيين، بل كان الغرض في الواقع غزو الأراضي التي يحكمها المسلمون ووضعها تحت حكم حكام غربيين لأسباب تراوحت بين الاقتصاد والسياسة وإن اتخذت الدين ستارًا والصليب شعارًا.

والحديث آن القرنين العاشر والحادي عشر قد ولّدا اهتمامًا متبادلاً بين الشرق والغرب، بمعرفة أحدهما للآخر وبدأت المؤلفات الدينية تتزايد واتخذت هذه المؤلفات طابعًا فلسفيًا عند اللاتين والإغريق فتعرضت لمختلف المذاهب بالوصف والشرح والعرض التاريخي واحتلت الأديان المكانة المهمة التي كانت للفلسفة.

وقد جاءت في تلك المرحلة التاريخية الحساسة بعض الأسماء التي قدر لها آن تخلف في تاريخ المسيحية في العصور الوسطى صفحات مشرقة في العلاقات بين المسيحية والإسلام وقد كان من بينها فرانسيس الأسيزي "١١٨٢ - ١٢٢٦" وريموند لول "١٢٣٢ - ١٣١٦".

واذا قر لدينا أن الباعث الرئيسي لكل منهما كان دينيًا خالصًا فإنه يلزم القول كذلك بأن الروح التي كانت تسيطر عليهما كانت روح الرغبة في خلق جو من التفاهم بين المسلمين والمسيحيين..

من هو فرنسيس الاسيزي وأي صفحات مشرقة قدر له كتابتها؟

هو مؤسس الرهبنة الفرنسيسكانية إحدى أهم وأقدم الرهبانيات الكاثوليكية المنتشرة في كافة بقاع الأرض.

ولد في بلدة اسيزي والتي ستشتهر لاحقا بكونها مدينة الساعين إلى السلام في العالم أجمع، وهي مدينة صغيرة بمقاطعة أومبريا بإيطاليا الوسطى وذلك في أواخر سبتمبر من عام ١١٨٢.

عُرف فرانسيس بحبه للفقراء وزهده لأباطيل العالم رغم أن أبوه هو بطرس برنردوني التاجر الثري واحد كبار تجار الأقمشة بالمدينة، كان شغل الأب الشاغل المال ولا شئ غيره وقد جاء المال يسعى إليه حثيثًا ومن العجب أن يرفض فرانسيس المال والسلطان وأن يؤسس جماعته على التجرد من حب العالم والدعوة إلى السلام والوئام بين الناس وحتى بين الطبيعة والمخلوقات غير الآدمية التي كانت تطيعه لما عرفت عنه من رحمة ومودة تجاهها.

والمؤكد أنه ليس هنا مجال تفصيل الكلام عن فرانسيس جهة سيرته الذاتية، لكن السعي في هذا المقام هو كيف تمكن فرانسيس من أن يوجد جسرًا بين الشرق والغرب، بين المسيحيين والمسلمين في ظل الحروب الصليبية المحتدمة في تلك الآونة.

كان الأسطول الذي يقل إحدى الحملات الصليبية على وشك الإقلاع من ميناء انكونا قاصدًا الأرض المقدسة إذ أقبل فرانسيس قادمًا من أسيزي ومعه عدد كبير من الأخوة يريد كل منهم أن يتبعه في رحلته الرسولية الفذة إلى الشرق كان ذلك في ٢٤يونيو سنة ١٢١٩م بعد أن سلم فرانسيس مقاليد الرهبنة بإيطاليا إلى الأخويين ماتيو دي نرني وجريجوريو دي نابولي.

وقد توفر لهم عدة أماكن محدودة على ظهر إحدى السفن، وفي منتصف شهر يوليو من ذات العام رست السفن في سان جوفاني دي اكري "ميناء عكا" حيث وجد فرانسيس بعض أبنائه من الأخوة الأصاغر مع الأخ إيليا رئيس إقليم شرق البحر المتوسط.

ومن هناك لم يلبث فرانسيس أن انطلق والأخ "ألوميناتو" إلى دمياط التي كان يحاصرها الصليبيون والتي كان يدافع عنها المصريون ببسالة منذ أكثر من سنة فلما وصل المعسكر المسيحي راعه أن يرى الفوضى والفساد والعداوات الوحشية والنهب والسلب والمواخير النجسة تسود المعسكر في ظل الصليب.

كانت صيحة فرانسيس عند رؤيته لهذا المشهد "ليس هم الشرقيون الذين يسدون الطريق إلى الأرض المقدسة بل غضب الله العادل".

وقد كانت حجة الطريق المسدود إلى الأرض المقدسة هي الذريعة التي اتخذت لتبرير تلك السلسلة من الحملات العسكرية.

وإذ بلغ فرانسيس أن الصليبيين يعدون العدة لمهاجمة المصريين حذّرهم أكثر من مرة بأن الهزيمة ستكون لا محالة من مصيرهم، وأن هزيمتهم هذه ستكون دامية نكراء وقد تم بالفعل ما تنبأ عنه فرانسيس فقد سقط من الصليبيين في هجومهم على قلعة دمياط يوم ٢٩ أغسطس أكثر من خمسة آلاف جندي.

وكان بإلهام إلهي أن غادر المعسكر الصليبي غير عابئ لا بالمخاطر ولا بالمتاعب التي يُعرّض إليها نفسه وتوجه والأخ الوميناتو إلى معسكر الأعداء كما كان يطلق عليه.

كانا يسيران تحت أشعة الشمس المحرقة حافيا القدمين وهما ينشدان في فرح أناشيد الرب دون خوف حتى إذا صادفا طليعة الجنود المصريين صرخ بلسان ركيك "سولدان، سولدان "يقصدان السلطان حاكم مصر وبلغة الإشارة والإيماءات الدالة على الاحترام والتقدير استطاعا بعد جهد تفهيم الجند إنهما يريدان مقابلة السلطان لتحيته وتقديم واجب الولاء له.

كان استقبال السلطان للراهبين الغربيين استقبالاً فيه كثير من الفروسية والشهامة والإيناس والحفاوة كان فرانسيس بالنعمة التي تغمر قلبه وجوانحه هادئًا طبيعيًا إلى أبعد الحدود يتكلم باسم الله بثقة ووداعة وطلاوة رافعًا من شأن المحبة والسلام مقرظا الصليب وحياة المجد في الآخرة، أعجب السلطان وهو الملك الكامل بن الملك العادل الأيوبي بشجاعة فرانسيس فقربه إليه فأقام عنده أيامًا غير قليلة كان يستمع خلالها من فم فرانسيس الكثير من الحقائق المسيحية باهتمام متزايد.

وفي نهاية فترة إقامته قدّم له السلطان منحًا وهدايا ثمينة كثيرة، لم يقبل فرانسيس منها سوى قرن من العاج كان يستخدم للدعوة إلى الصلاة وذلك ترضية لخاطر الملك وتصريحا كتابيًا يمنحه الحق في زيارة الأماكن المقدسة في فلسطين والوعظ في طول البلاد وعرضها.

على أن الملك الكامل، وإن لم يعتنق المسيحية إلا أنه بعد أن تعرّف على فرانسيس صار يشفق على المسيحيين ويعاملهم برفق ومحبة، حتى إذا وضعت الحرب أوزارها أطلق سراح الأسرى المسيحيين وتصدق على فقرائهم.

كما أرجع للمسيحيين عود الصليب المقدس، الذي كان قد أخذه سلفه السلطان صلاح الدين الأيوبي من اورشليم واذن للرهبان الفرنسيسكان في الإقامة بالبلاد والإنذار بالانجيل.

وأرسل السلطان فرانسيس ومعه الأخ الوميناتو إلى المعسكر المسيحي معززًا مكرمًا تصحبه سلة من الجنود لحمايته في الطريق.

وابان إقامة فرانسيس بدمياط استطاع الصليبيون "الاستيلاء على قلعة المدينة وتدميرها"، وقد كان ذلك الهجوم بالغ العنف لم تقو على صده مقاومة الحامية والأهل المستميتة.

وشاء الصليبيون أن ينتقموا لقتلاهم في الهجوم الأول الفاشل فدكوا المنازل والمساجد والميادين التي اختلط فيها صوت السلاح بأنين القتلى والجرحى وصراخ النسوة والأطفال.

أثار الأمر غضب فرانسيس وجعل الرعب يستولى على قلبه وقد بلغ من شدة استيائه وعدم رضاه عن تلك الأعمال الوحشية، أنه غادر على الفور دمياط وانطلق إلى الأراضي المقدسة، لينسى هناك ما رأت عيناه من مذابح مروعة وفناء ودمار ويعيد إلى روحه المضطرب المحزون التعزية والسكينة اللتين كان يفتقر اليهما.

وفي القدس اتصل فرانسيس الأسيزي بالسلطان عيسى سلطان دمشق مستخدمًا كتاب التوصية الذي أخذه من سلطان مصر، وطلب منه التصريح له ولرفاقه بالإقامة في مقر متواضع فوق جبل صهيون بهدف رعاية المقدسات المسيحية الموجودة فوق الجبل، وخاصة علية صهيون وكانت هذه العلية عبارة عن مبنى مكون من طابقين في أولهما قاعتان وفي ثانيهما قاعتان أخريان هما المسميتان بعلية صهيون وفي القاعة الغربية منهما تناول السيد المسيح العشاء الرباني أو العشاء الأخير مع تلاميذه.

في فلسطين عاش فرانسيس بقلبه وروحه ووجدانه، الحوادث التي يقصها الانجيل، في روعة وبساطة فحيثما سار وحيثما حل كان يخيل إليه أنه يرى

يسوع ويسمعه، يراه في الفقير وفي شخص كل معذب ومظلوم وما أكثرهم في بلاد فلسطين، ويسمعه في النسمة العليلة والريح الزفزافة في خرير مياه الأردن لنهر المقدس وفي العاصفة التي يضطرب لها بحر الجليل.

كانت رحلة فرانسيس مجدية بأبلغ مكان، فقد استطاع بمحبته وحواره لسلمي آن يصنع وحده ما لم تستطيع الجيوش أن تقوم به.. فلقد بني فرانسيس جسرًا من الثقة والحوار المتواصل مع سلاطين العرب وأئمة الإسلام والمسلمين في لبلاد العربية التي زارها.

وقد ترك أثرًا طيبًا رجع لاحقا على أعضاء رهبانيته الذي طلبوا رعاية لكثير من المقدسات المسيحية في فلسطين ووافق لهم الحكام الايوبيون على ذلك وفي سنة ١٣٣٥م قاموا بتوسيع مقر إقامتهم الأول وبناء دير صهيون وكنيسته بعد إعادة بنائها وقد ضم هذا الدير علية صهيون والمقدسات المجاورة.

ولم يكتف الآباء الفرنسيسكان برعاية المقدسات الموجودة على جبل صهيون، بل تطلعوا آن يكون لهم نصيب في خدمة كنيسة القيامة، فوافق لهم السلطان المملوكي الاشرف علاء الدين كحك بن الناصر محمد علي وذلك بصفتهم ممثلين للطوائف المسيحية الغربية وكان ذلك في سنة ١٣٤٢م وفي يوم ٢٠ نوفمبر من نفس السنة صدر لهم المرسوم البابوي، والذي بمقتضاه عهد اليهم بمهمة رعاية كنيسة القيامة والمقدسات الموجودة فوق جبل صهيون، وأصبح لقب رئيسهم حارس كنيسة القيامة وجبل صهيون وصار لهم دير ثان في بيت لحم وثالث ببيروت ودار لاستضافة الحجاج الاجانب في الرملة ودير رابع في الرملة أيضًا في أواخر أيام المماليك ودير للراهبات بالقدس.

ومن دير جبل صهيون بالقدس جاء إلى مصر بعض الرهبان الفرنسيسكان، وذلك منذ سنة ١٢٥٣م وأقاموا لهم مقرا في الاسكندرية سنة ١٣٢٥م ومنذ ذلك الحين بدأت الأرساليات الكاثوليكية تجد طريقها ثانية إلى مصر بعد أن فتح لها فرانسيس الاسيزي الطريق من خلال الحوار السلمي لا عن طريق السيوف والرماح وسنابك الخيل.

كان فرانسيس ضد الحملات الصليبية حيث كان يحارب المسيحيون لاستخلاص الاماكن المقدسة من ايدي المسلمين، حسب منطوق الدعوة تلك الحروب لذلك فقد كان من الطبيعي أن يرتفع صوته عاليًا داعيًا إلى صيبية

آخرى لا تعرف إلى الفتك سبيلاً، والى القتل والترويع طريقاً، كان يدعو إلى صليبية المحبة.

لم تكن المسيحية أبدًا حاضرة في تلك الحروب التي قادها كبار الإقطاعيين، والتجار الطامعين، الذين رأوا فيها فرصة سانحة لتحقيق مطامعهم المادية التي لا تشبع أما صليب المسيح الذي كانوا يحملونه ويرفعونه فما كان إلا ستارًا لتغطية تلك المصالح والأغراض والمطامع السياسية والاقتصادية والتي شوهت الأخلاق المسيحية ومثلها العليا.

بينما فرانسيس فارس المسيح العفيف فكان لدى سماعه تلك الأنباء المخزية يثور مستنكرًا الخيانة، وقد زاد يقينه بأن السلاح لا يمكن أن يكون وسيلة المسيحي للخير وأن الشر لا يقاوم بالشر، بل بالمحبة لان السلاح يزهق روح الظالم والبرئ معًا وأما المحبة فتخلص كليهما.

وراى فرانسيس أن صليبية المحبة هي الطريق إلى الآخرين، وانه في سبيل ذلك لا يخشى اقتحام الصعاب وبذل ذاته حتى الدم إذا لزم الأمر، وقد تجلى ذلك في تحذيراته المتكررة للصليبيين في دمياط من أن الهزيمة قادمة ولا محالة وقد اتهموه بالجنون ولدى سماعهم أطروحات صليبية المحبة عوضًا عن المدجحه بالسلاح، قابلوه بعدم الاكتراث وبسخرية بعد أن ملأتهم الغطرسة وقست قلوبهم وعميت عيونهم ولم يريدوا التوبة وأصروا على الحرب وكان ما كان من أمر خسارتهم الفادحة وهكذا اتضح أنه ما كان لهم أن يهزأوا بحكمة رجل الله الفقير أو يستهينوا بأقواله "لأن نفس الرجل البار قد تخبّر بالحق أفضل من سبعة رقباء يرقبون من موضع عالٍ".

ولعل فرانسيس الذي ملأته روح الحكمة والمحبة قد علم بالروح أن الشقاق والفراق الذي كان سائدًا في أيامه، ربما يستمر إلى أيام وأجيال فكان أن وجه رسالة إلى قادة الأمم والشعوب جاء فيها:

من فرانسيس خادم الله إلى قادة الشعوب "

إلى جميع أصحاب السلطة من ملوك ورؤساء وحكام وقضاة ومسئولين في كل مكان من هذا العالم وإلى جميع من تصله رسالتي هذه:

أنا الأخ فرانسيس الأسيزي خادمكم الصغير الحقير في الرب أتمنى لكم جميعًا الخير والسلام

- تبصروا وانظروا في حياتكم لا تدعوا مشاغل وهموم هذه لدنيا لتنسيكم الله وتجعلكم تحيدون عن وصاياه لأن كل الذين ينسونه ويخرجون عن طاعته يبغضهم الله ولا يعود يذكرهم.
- وعندما يحين آجلهم فإن كل ما كان يحسبونه ملكا لهم سيذهب منهم.
- وكذلك فإن كل ما لديهم من قوة أو علم أو حكمة فإنه إذا لم يكرّس للخير سيعود عليهم بالعذاب الشديد في الآخرة.
- لهذا السبب فإنني يا سادتي الح عليكم في النصيحة والقول بأن تلقوا جانبًا كل قلق وهم بفرح كبير بادروا إلى استقبال الله في قلوبكم.
- مجدوا الله وعظموه آمام جميع أفراد الشعب المفوضة إليكم سياسته ورعايته آعلنوا لهم بكل الوسائل وفي جميع الأوقات بأن على الجميع واجب تقديم المديح والشكر للرب الإله.
- اعلموا إنكم إذا لم تفعلوا هذا فإنكم ستقدمون عنه حسابًا عسيرً أمام الله يوم الدين.
- آما آولئك الذين يحفظون هذه الوصية أمام الله يوم الدين ويعملون بموجبها فإنهم مباركون من الله.

هذه هي ملامح صليبية المحبة التي بشّر بها فرانسيس العالم آجمع من خلال إعلانه البشارة لقادة وملوك ورؤساء العالم، وهي حقائق تتفق وسائر الأديان دون أدنى تمييز، أو تفريق وما أبعدها عن صليبية الرايات الفاقعة والاصوات الزاعقة الداعية للجهاد باسم الرب.

وبعد نحو ثمانمائة سنة من مولد الاسيزي يجتمع في بلدته رموز من كل الأديان ليوقعوا ما سيعرف لاحقا بالوصايا العشر لصنع السلام في العاله وهي ثمرة لقاء اسيزي للأديان والذي جاء في أوائل شهر يناير من عام ٢٠٠٢م حيث وافق كل رجال الدين من مختلف الديانات في العالم على هذه الوثيقة، وقد ارسلت إلى حكام ورؤساء الدول مرفقة برسالة من طيب الذكر البابا يوحنا بولس الثاني الكبير للتعريف بها على أمل أن يعملوا بموجبها لأنها قد تساعد في توجيه العمل السياسي والاجتماعي للحكومات.

وقد ورد في الرسالة المرفقة "بأن المشتركين في لقاء اسيزي مقتنعون كثر من أي وقت مضى بأن على البشرية أن تختار بين المحبة والكراهية لأن المحبة تبني والكراهية تهدم، وقد أضاف البابا بأن رجال الدين المنتمين إلى مختلف الديانات في العالم يتوقون إلى الانفتاح على المصالحة ويعملون من أجل تقدم

السلام في ربوع العائلة البشرية وهم يعبرون عن هذا الالتزام عن طريق "الوصايا العشر" التي أعلنت في نهاية لقاء اسيزي في ذلك اليوم الفريد من نوعه وقد عبّر البابا عن آمله بأن تنعش هذه الروح كل ذوي النوايا الحسنة، وتقودهم إلى البحث عن الحقيقة والعدالة والحرية والمحبة لكي ينعم كل إنسان بحقوقه كاملة وكل شعب بتقرير مصيره في الحرية والامن والسلام.

تقول الوثيقة التاريخية التي وقّع عليها ١٢ من رؤساء الديانات في العالم وقرآها عشرة من ممثليها أيضًا:

- نتعهد بإعلان قناعتنا الثابتة بأن العنف والإرهاب يتنافيان مع روح الأديان ونندد باللجوء إلى العنف والحرب باسم الله أو باسم الدين كما نلتزم ببذل قصارى جهدنا لاجتناب أسباب الإرهاب.
- نتعهد بتربية المؤمنين على الاحترام المتبادل والمودة للجميع فيما تتوصل الشعوب، والأعراق والثقافات والأديان المتنوعة إلى العيش معًا بسلام وتضامن وأمان.
- نتعهد بتشجيع ثقافة الحوار فيما يزداد الفهم المتبادل وتتعزز الثقة المشتركة بين الافراد والشعوب، لان هذه هي الشروط الأساسية للسلام الحقيقي.
- نتعهد بالدفاع عن حق كل كائن بشري بالعيش بكرامة، وفقًا لهويته الثقافية والتمتع بحرية إنشاء عائلة خاصة تنعم بكافة الحقوق.
- نتعهد بالحوار الصريح والهادئ غير معتبرين أن ما يفرقنا من اختلافات حواجز لا يمكن اجتيازها وتخطيها بل اعتبار أن تنوعنا واختلافنا عن الآخرين يمكن أن يصبح مناسبة للفهم المتبادل وللفائدة المشتركة.
- نتعهد بأن نغفر لبعضنا البعض أخطاء الماضي والحاضر وأحكامه المسبقة ونلتزم ببذل ودعم الجهود المشتركة للتغلب على الأنانية، والكراهية والعنف متعلمين من الماضي بأن السلام بدون العدل ليس سلامًا حقيقيًا.
- نتعهد بالوقوف إلى جانب المتألمين والذين يتعرضون للبؤس والإهمال ونلتزم بأن نكون صوتًا للذين لا صوت لهم عاملين عمليًا لتخطي هذه الحالات البائسة ومقتنعين بأن الإنسان لا يمكن أن يكون سعيدًا وحده.

- نتعهد بتبني صرخة الذين لا يرضخون للعنف والشر ونلتزم بالمساهمة بكل قوانا وجهدنا ووقتنا في إعطاء البشرية كل أسباب الأمل والعدل والسلام.
- نتعهد بتشجيع كل مبادرة تعزز الصداقة والتعاون بين الشعوب مقتنعين بأن التقدم التقني قد يُعرّض العالم لمخاطر متزايدة من الدمار والموت في حالة غياب التفاهم بين الشعوب".
- نتعهد بحثّ المسئولين عن مصائر الأمم والشعوب من حكام ورؤساء الدول على بذل كل الجهود الممكنة لبناء عالم يسوده التضامن وينعم بالسلام المؤسس على العدل.

هل كان فرانسيس الأسيزي جسر المحبة غائبًا عن هذا اللقاء؟ لا أعتقد أن ذلك كذلك.

كان فرانسيس حاضرًا وكانت دعوته للسلام قائمة، وها هم الرؤساء الروحيون لجميع الديانات في العالم كله يجتمعون في مدينة أسيزي حول فرانسيس وفي رحابه يستمطرون إنعامات الله ليحل على الأرض السلام.

وليبقى فرانسيس أول من حمل المعاول لتحطيم الجدارن، جدران الحرب والكراهية وباكورة البنائين لجسور السلام والوئام بين البشر.

# جورجي زيدان

## ١٨٦١- ١٩١٤

# ودور المسيحيين العرب

ولما كنا في حيفا الصيف الماضي كان هذا الغور معروضًا للبيع وقد احتج أعيان الوطنيين على الحكومة لما بلغهم عزمها على بيعه لبعض الأجانب أو اليهود فتوقفت الحكومة عن بيعه مؤقتا وشاهدنا في يافا مستعمرة إسرائيلية اسمها تل أبيب شادتها شركة يهودية لسكنى اليهود.

يمكن تلخيص حياة جورجي زيدان في عبارة واحدة ذاك أنه الرجل المسيحي الديانة الإسلامي الثقافة والذي استطاع من خلال رواياته أن يقدم التاريخ الإسلامي بسهولة ويسر، وأن يضع يده على عناصر التسامح والعقلانية في التاريخ الإسلامي فكان بذلك جسرًا وقنطرة في التواصل الحميد بين الشرق والغرب.

وإذا كان التاريخ الإسلامي يعد المصدر الأول للرواية التاريخية الإسلامية والذي لجأ إليه الكتاب، يستقوا من منبعه روافد أعمالهم القصصية والأدبية فإنه في مقدمة هؤلاء يأتي جورجي زيدان ذلك لأنه من أوائل من كتبوا روايات تاريخية مستمدة في إطارها العام من التاريخ الإسلامي. بل أن كثيرًا من النقاد يعدونه رائدا للقصة الإسلامية التاريخية في عالمنا العربي لذا كان لابد لنا من وقفه معه وإلقاء الضوء على مشروعه الحضاري، والتنويري والذي قدم فيه التاريخ الإسلامي على أنه فترة ذهبية للحوار والجوار والتعايش، وبعيدًا عن صفات الكراهية ومنظومات الحقد الأيديولوجي إن جاز التعبير.

ولد جورجي زيدان في بيروت في الرابع عشر من ديسمبر من العام ١٨٦١م لأسرة مسيحية رقيقة الحال كان والده صاحب مطعم صغير، لا يجيد القراءة ولا الكتابة ورغم ذلك فإن مطعمه كان المحل المختار لطائفة عريضة من الكتّاب والأدباء وطلاّب الكلية الأمريكية، ولما بلغ الخامسة من عمره أرسله أبوه إلى مدرسة متواضعة ليتعلم القراءة والكتابة والحساب حتى يستطيع مساعدته في إدارة المطعم وضبط حساباته.

ومن بعد التحق بمدرسة للشوام وفيها تعلّم اللغة الفرنسية وفي المساء كان يدرس الإنجليزية بمدرسة ليلية مما يشير إلى نموذجه العصامي والذي لم تقف أمامه الصعاب أو تحول دونه العقبات في سبيل تنفيذ ما يريد.

لم ينتظم جورجي في السلك الدراسي المدرسي فتركه وعمل في مطعم والده غير أن والدته كرهت له العمل بالمطعم فاتجه إلى تعلم صناعة الأحذية وهو في الثانية عشرة ومارسها عامين حتى أوشك على إتقانها لكنه تركها لاحقًا لأنها لم تكن تلائم ظروفه الصحية، غير أنه لم يكن بعيدًا عن القراءة

والاطلاع بنهم وشغف إذ كان يبدي ميلاً قويًا منذ حداثته للمعرفة، وشغفًا بالأدب على وجه الخصوص وقد ازدادت تطلعاته المعرفية بمصاحبته لرجال من أمثال يعقوب صروف وفارس نمر وسليم البستاني، وغيرهم ممن كانوا يدعونه للمشاركة في احتفالات الكلية الأمريكية فهفت نفسه إلى الالتحاق بها مهما كلفه الأمر أو بذل من مشقة وجهد وإذ به يترك العمل نهائيًا، ليلتحق بكلية الطب والتي كانت تسمى مدرسة الطب في ذلك الوقت ثم يهجرها لمدرسة الصيدلة ولاحقا يغادر إلي القاهرة على أمل استكماله لدراسة الطب غير أن القدر كان يعد له طريقًا مغايرا عما رسمه لنفسه، وليجد نفسه محررًا في صحيفة الزمان اليومية التي كان يملكها ويديرها رجل أرمني الأصل يدعى علكسان صرافيان كان ذلك في العام ١٨٨٣ م وبين هذا التاريخ والعام ١٨٩٢م موعد إصدار جورجي زيدان للعدد الأول من مجلة الهلال تنقل بين عدة وظائف فعمل كمترجم للحملة الانجليزية في السودان ومديرًا لمجلة المقتطف ومدرسًا للغة العربية، ومع العدد الأول من المجلة والذي صدر في ربيع أول ١٣١٠هـ ١٨٩٢م كانت بداية النهضة والانطلاق لواحدة من أعرق دور النشر في مصر "دار الهلال" وبداية المسيرة التاريخية لرجل الرواية التاريخية الإسلامية والذي لم يستنكف يجلي ما علق بهذا التاريخ من شوائب بفعل الزمان وروايات المغايرين.

عمد جورجي زيدان لأن تكون الهلال مجلة علمية تاريخية صحفية أدبية وقد وجدت قبولاً طيبًا في الحياة المصرية، ذلك أنه لم تمض سوى بضع سنوات حتى كانت أوسع المجلات انتشارًا وها هي اليوم ناهزت المائة عام ووجد عمالقة الأدب والفكر في مصر والعالم العربي طريقهم إليها ينشرون ما يكتبون ويقولون ما يعتقدون وقد كان زيدان نفسه ينشر كتبه على هيئة فصول في هذه المجلة والتي عاونه على إصدارها ابنه إميل زيدان بعد أن شب عن الطوق ويمكننا تقسيم كتب جورجي زيدان منذ بدأ رحلته مع التأليف عام ١٨٨٩م إلى ثلاثة أقسام: تاريخية ولغوية وأدبية.

أما عن التاريخ فكتب "مصر العثمانية" و"التمدن الإسلامي" وتاريخ مصر الحديث و "تاريخ العرب قبل الإسلام" كما كتب "تاريخ الماسونية" و "رحلة جورجي زيدان إلى أوربا" وكتب كتابًا مهمًا في إطار الروح الكونية أسماه "التاريخ العام منذ الخليقة إلى الآن"

وإضافة إلى هذه الكتب ذات العلاقة بالمنطقة العربية والإسلامية فقد كتب "تاريخ انجلترا منذ نشأتها إلى هذه الأيام" وكتاب "تاريخ اليونان والرومان"

وفيما يخص اللغة العربية وآدابها كتب جورجي زيدان "تاريخ آداب اللغة العربية" وكتاب "تاريخ اللغة العربية" وكتاب "أنساب العرب القدماء" وكتاب "الفلسفة اللغوية والألفاظ العربية" وكتاب "مختارات جورجي زيدان في فلسفة الاجتماع والعمران".

وعن الروايات ذات الصلة بالتاريخ العربي والإسلامي، وهو المجال الذي أبدع فيه جورجي زيدان ولعب فيه دور الجسر رغم مسيحيته فمنها رواية "أرمانوسة المصرية" ورواية "فتاة غسان" ورواية "عذراء قريش" ورواية "السابع عشر من رمضان" إضافة إلى روايات "غادة كربلاء" والحجاج بن يوسف " وفتح الاندلس" و"شارل وعبد الرحمن" وأبدع زيدان على وجه خاص في روايات "ابو مسلم الخراساني"، "والعباسة آخت الرشيد" و "الأمين والمأمون" ورواية عروس فرغانة و"آحمد بن طولون".

كما آفرد جورجي زيدان أوراقه لشخصيات يذخر بها التاريخ العربي مثل صلاح الدين الايوبي والذي قدم له في رواية "صلاح الدين ومكائد الحشاشين" إضافة إلى الرواية الشهيرة "شجرة الدر".

والحق آن جورجي زيدان قد بذل جهدًا كبيرًا فيما كتب وصدق مع نفسه وقلبه فعرض التاريخ الإسلامي في أبهى صوره لاسيما في المواقع والمواضع التي تجلت فيها روح الإسلام والمسلمين السمحة فعلى سبيل المثال في روايته "غادة كربلاء" يقوم برسم صورة مشرقة للكنائس والأديرة حيث نجدها دائمًا هي مكان الآمن والطمأنينة.

والمؤكد آن كتابات جورجي زيدان تعد من قبيل الشهادة غير المجروحة للتاريخ الإسلامي وهو ما يجعله في هذا الكتاب واحدًا من أصحاب الجسور وعلى سبيل المثال فإن كتابه "تاريخ التمدن الإسلامي" الذي آصدره في خمسة أجزاء في الفترة الممتدة من ١٩٠٢م حتى ١٩٠٦م يعد ثورة في التارخ الإسلامي الحديث ومن أهم مصنفاته ولاغرو فإن الرجل قد آفاد من قراءاته ودراساته في المؤلفات الغربية ومناهج التأليف في التاريخ والحضارة فضلاً عن مطالعاته الواسعة في المصادر العربية وكان من يكتبون تاريخ الإسلام ينهجون نهج رواة المسلمين القدامى مع شئ من التحسن مثلما هو الحال في كتابات الشيخ محمد الحضرمي ولم يكن لهم صلة بعالم الاستشراق أو وقوف على المناهج الحديثة.

وكان أن أحدث الكتاب عند ظهوره جدلاً إيجابيًا واسعًا وأقبل عليه الناس مما دعا الجامعة المصرية في ذلك الوقت للتنبه لمكانة زيدان وسعة علمه فدعته إلى إلقاء سلسلة من المحاضرات في التاريخ الإسلامي وقد ترجم الكتاب إلى عدة لغات شرقية كما ترجم المستشرق الإنجليزي "مارجوليوث" الجزء الرابع منه إلى الإنجليزية وعده عملاً أصيلاً غير مسبوق.

وإذا كانت قضية فلسطين هي محور النزاع العربي - الإسرائيلي، وحجر الرحى منه فقد كان زيدان من أوائل الذين وضعوا أصبعهم على الجرح، وشخص كالطبيب النطاسي حالة الصهيونية في الأراضي الفلسطينية مبكرًا جدًا وقبل أي التفات من قبل العرب وهو ما لم يحدث بالفعل حتى وقوع حادث البراق في العام ١٩٢٩.

كان جورجي زيدان قد قام برحلة إلى فلسطين قبل وفاته عام ١٩١٤م حيث زارها في صيف ١٩١٣م وقدم تغطية موسعة وموثقة لهذه الرحلة على صفحات الهلال، ابتداء من عدد ديسمبر ١٩١٣ حتى مايو من العام التالي، وكان قد مهد لهذه التغطية بدراسة تاريخية عن فلسطين في عدد أكتوبر ١٩١٣م ودراسة أخرى عن الصهيونية تاريخها وأعمالها في عدد نوفمبر ١٩١٣م بدأها بالقول أن الصهيونية دعوة اجتماعية سياسية انتشرت في الامة الإسرائيلية بأواخر القرن الماضي وكثر تحدث الناس فيها بالاعوام الأخيرة وقد همنا أمرها على الخصوص في اثناء رحلتنا بفلسطين.

وأحسب أن جورجي زيدان كان من أوائل الأصوات الصارخة في براري العرب منذرا ومحذرا من أن غرض الصهيونية هو جمع الشعب الإسرائيلي في فلسطين وجعلها وطنا خاصًا به، ويكمل بالقول أن هذه الدعوة مبنية من الوجهة الدينية على آيات جاءت في سفر أرميا وهو أحد أسفار التوارة أو العهد القديم كما يطلق عليه.

وفي إشارة جورجي زيدان إلى قضية الوجهة الدينية كان يسبق عصره وزمانه، ذلك أن قضية الأصولية اليمينية المسيحية، والتي يطلق عليها البعض الصهيونية المسيحية والتي جرت على العالم في الآونة الأخيرة، وبالاً شديدًا كانت تستند إلى نفس المعطيات التي حذر منها جورجي زيدان مسبقًا، أي الخلفية الدينية وإعمال النصوص الكتابية في الواقع السياسي، وتسخيره ولي

عنق المفاهيم العقائدية وتطويعها لصالح الرؤى والأيديولوجيات الاستعمارية، مهما كان جسمها أو رسمها.

وقد كان زيدان كذلك ممن حملوا الراية الحمراء للتنبؤ لمأساة بيع الأراضي الفلسطينية لكن ألوان رايته الزاهية لم تلفت نظر الحكام والحكومات العربية في ذلك الوقت إما عن جهل أو فساد أو بسبب الأمرين معًا.

ويحكي زيدان على صفحات الهلال هذه الواقعة إذ يقول "ولما كنا في حيفا بالصيف الماضي كان هذا الغور معروضا للبيع وقد احتج أعيان الوطنيين على الحكومة لما بلغهم عزمها على بيعه لبعض الأجانب أو اليهود فتوقفت الحكومة عن بيعه مؤقتا".

وتقودنا كتابات جورجي زيدان إلى القول بأن آهالي المنطقة أو من يسميهم الوطنيين كانوا متنبهين إلى مخاطر إقدام اليهود على شراء الأراضي لكن أحدًا من المسئولين لم يتخذ الاجراءات الكافية فيقول "ورغم احتجاج المسلمين والمسيحيين وغيرهم من الوطنيين على بيع الأرض لليهود فإنهم يبتاعونها ويصلحونها ويغرسونها أو يبنونها ويعولون في استعمارها على أحدث الطرق الفنية من حيث الغرس وتشييد المنازل أو تنظيم الشوارع.

وفي قراءة جورجي زيدان للمشهد اليهودي الناشئ تحذيرًا مسبقًا للمشروع الذي جاء به المحتل، والذي استند إلى خبرات العالم الأوروبي الحديث فيما كانت الامبراطورية العثمانية تجثم على صدر العالم العربي جهلاً وفقرًا وبؤسًا فنجده يصف ما شاهده فيقول "شاهدنا في يافا محلة أو مستعمرة اسرائيلية اسمها "تل ابيب" أدهشنا ما رأيناه فيها من نظام الشوارع واتقان البيوت في بنائها على الطراز الصحي ويقدم وصفًا لتل أبيب.. شوارعها وبيوتها وأشجارها ثم يذكر "وقد شادت هذه المحلة شركة يهودية لسكن اليهود وهي تؤجرهم إياها بطريقة الاستهلاك بشروط سهلة بحيث يصبح المنزل لساكنه بعد مدة غير طويلة.

لكن أحدًا في ذلك الوقت لم يأخذ تحذيرات جورجي زيدان مأخذ الجد ونظر إليه البعض وهي نظرة تمتد حتى الساعة عند نفر غير قليل " نظرة ملؤها الارتياب والشك بسبب هويته الدينية"، لكن قسما أكبر في السنوات الأخيرة أرجع للرجل حقه وفضله ففي أواخر ديسمبر من عام ٢٠٠٤ صرح محمد الشافعي رئيس تحرير دار الهلال في القاهرة بأن الدار ستعيد إصدار روايات تاريخ الاسلام

والتي كتبها الأديب والمؤرخ اللبناني جورجي زيدان في محاولة لمواجهة ما وصفه بالتشويه المتعمد للتاريخ العربي.

وأضاف الشافعي أن أعمال زيدان تتضمن إجابات عن كثير من الأسئلة المهمة التي تواجه العرب والمسلمين في الوقت الراهن الذي يتهمنا الغرب المسيحي بقيادة الولايات المتحدة بالإرهاب والتطرف في حين أكد زيدان المسيحي المستنير في رواياته مدى تسامح الحضارة الإسلامية وقال الشافعي أن السلسلة الجديدة ستصدر بانتظام أول كل شهر بهدف جذب أنظار الجيل العربي الجديد إلى التاريخ الذي يتعرض لعملية تحريف رهيبة يقف وراءها الكثيرون في الغرب في الآونة الأخيرة.

وفي نهاية تصريحاته شدد على أن زيدان كتب عن تاريخ الإسلام بحياد وإنصاف وتحمل كتاباته رسالة بليغة إلى الغرب في الآونة الأخيرة.

وقد كان أن أوفت دار الهلال بما وعد به رئيس تحريرها بالفعل فوجد المملوك الشارد "أمين بيه" طريقة ثانية لعقول الشباب وعرف المصريون المعاصرون من هي أرمانوسة المصرية ويبقى تاريخ التمدن الإسلامي درة ما كتب اللبناني الأصل والمصري الهوى نهلا ينبع منه الجمع من بعد سنوات الجفاف الطوال.

ومما لاشك فيه أن الحديث عن جورجي زيدان من منطلق هويته الدينية إنما يقودنا ولا شك للحديث عن دور المسيحيين العرب بشكل أوسع كجسر وقنطرة مع العالم الغربي ذلك لأنه إذا كانت هويتهم الدينية تشارك نظيرتها في الغرب فإن جذورهم وثقافاتهم وأنماطهم الحياتية هي مشرقية الهوى والهوية بل إن هويتهم الشرقية هذه مستمدة من الحضور المسيحي المشرقي في العالم، والذي بدأ بميلاد السيد المسيح في أرض فلسطين قبل ألفي عام وحضورهم هو امتداد لحضور المسيح في المشرق ومنه حمل المسيحيون الأوائل رسالة المسيح والمسيحية إلى العالم أجمع، واليوم يبدو المشهد في حالة مشابهة إذ تعلق في أعناقهم مسئولية الدفاع عن شركاء الوطن إخوانهم في المبنى والمعنى وقد قال الكثيرون منهم أننا مسيحيو الديانة ومسلمي الثقافة والتعبير هنا للسياسي المصري والقطب الوفدي الكبير مكرم عبيد باشا رحمه الله.

والمقطوع به أن الدور الذي قام ويقوم به المسيحيون العرب يمتد في تاريخ العرب الحديث ولاسيما مع ظهور القومية العربية.

ويحدثنا الكاتب القومي العربي الدكتور مصطفى الفقي في مؤلفه "العرب الأصل والصورة" تحت عنوان رسالة إلى شركاء الحضارة.. المسيحيين العرب" قائلاً: إن المسيحيين العرب هم في طليعة رواد الحركة القومية وإسهامهم في ثراء الفكر العربي أمر لا يحتاج إلى إثبات كما أن مشاركتهم في كل قضاياه لاتحتاج هي الأخرى إلى دليل جديد ويكفي أن نتذكر أن الأغلب الأعم من المسيحيين العرب وقف في صفوف أمته مدافعا عن شخصيتها متمسكا بهويتها أمام كل أنواع الغزو الخارجي مغوليًا أو صليبيًا أو بريطانيًا أو فرنسيًا أو إيطاليًا، وعندما بدأت الهجمة الصهيونية فإن المسيحيين العرب كانوا دائمًا في الصفوف الأولى حتى آن عددًا من فصائل المقاومة الفلسطينية كان المسيحيون الفلسطينيون هم قيادتها التاريخية وأداتها التنفيذية.

وقد وقر في ذهن المحتل الأجنبي هذا الدور الوطني للمسيحين العرب لذا فقد بادلوا أهالي المشرق من المسيحيين عداءًا واضحًا صريحاً غير مريح، وهو ما يمكن تبينه بسهولة من الجزء الثاني من كتاب اللورد كرومر معتمد بريطانيا في مصر الحديثة، والذي خصص فيه أربع عشرة صفحة كاملة عن الأقباط، ورماهم فيه بكل مذمة فهو يرى أن مسيحيتهم محافظة شأنهم في ذلك شأن إسلام المسلمين من مواطنيهم على عكس المسيحية الغربية المرنة والتقدمية كذا، وأن الأقباط أحاطوا أنفسهم بالحواجز المانعة للتقدم شأن المسلمين، وقد استعان للتدليل على صحة ما ذهب إليه بكتابات الرحالة المشهور إدوارد لين وبتقارير القنصل البريطاني "جون بورنج" ويختم حديثه بالاعتراف بأن الإنجليز وجدوا الأقباط معادين للاحتلال على وجه العموم منذ اليوم الأول الذي نزلوا فيه إلى البلاد.

وعودة ثانية للدكتور الفقي في مؤلفه السابق إذ يرى أن المسيحيين العرب قد لعبوا دورًا رياديًا في تشكيل ملامح الفكرة القومية في القرنين الماضيين، فقد انعقدت المؤتمرات العربية منذ أواخر القرن التاسع عشر في عدد من العواصم الأمريكية والأوروبية فضلاً عن الكتابات المبكرة التي أشارت إلى يقظة العرب ووحدة الأمة.. وهنا يجب أن نعترف بوضوح أن مسيحي الشام قد لعبوا في ذلك دورًا بارزا لا يمكن إنكاره ولا ينبغي الإقلال منه خصوصًا إذا سلمنا أن الفكر القومي الحديث هو جهد شامي في إطار العروبة بالدرجة الأولى لأن الشوام الذين كانوا يواجهون القهر العثماني لم يكن أمامهم إلا الاعتصام

بعروبتهم في مواجهة الحاميات العثمانية التي تشترك معهم في الدين وتخاصمهم بالقومية ".

والواقع هو أن قافلة المسيحيين العرب والتي يشرف كاتب هذه السطور بالانتماء إليها لعبت دورًا فاعلا ومؤثرًا في إطار الاعتزاز بالقومية العربية بشكل واسع وبالمواطنة في صورتها الأصغر ولعل السنوات التي قضيتها ما بين أوربا والولايات المتحدة الأمريكية قد دلتني إلى أي حد ومد يمكن لهؤلاء أن يلعبوا دورًا فائق الأهمية ذلك لأن التساؤل الذي كثيرًا ما واجهته "أأنت مسيحي ومن بلاد عربية هي مصر؟ وكيف تعاملون هناك إلى آخر منظومة الأسئلة التي بعضها عن جهل واضح والبعض الآخر يصب في مصلحة العمل السري الذي يحاول اختراق الكثير من هؤلاء، واستخدامهم كمخلب قطب لتحقيق أهداف كولونيالية لا تخفى على أحد، ويبقى الرهان على إكمال مسيرة أسماء من عينة مكرم عبيد وميشيل عفلق ونجيب الريحاني وجورج حبش ونايف حواتمة وجورجي زيدان، هو الأصل وماعداه يصبح الاستثناء.

والمعروف أيضًا أن دولا بعينها كلبنان ومصر قدمت عائلات مسيحية مرموقة قادت نهضة عربية لا شك فيها ولا غبار عليها ولعبت دورًا فاعلا في الترجمة ونقل الخبرات عبر طريق مزدوجة قضبانه حملوا من الشرق تراثه الروحي والأدبي وصاغوه في قوالب فكرية بديعة اطلع عليها الغرب وجاؤا من الغرب بخبرات الحداثة والعلم، وفتحوا طريق التنوير واسعا ومن هذه العائلات اليازجي ومعلوف والبستاني وتقلا، فضلاً عن عشرات الأسماء اللامعة في سماء التاريخ العربي بدءًا من جبران خليل جبران مرورًا بميخائيل نعيمة وسلامة موسى وخليل مطران ولويس عوض وإدوارد سعيد وغيرهم من الرموز التي تمثل قوافل من المسيحيين العرب على مختلف طوائفهم ممن شاركوا بإيجابية في الحياة السياسية والثقافية للأمة العربية وانصهروا فيها وناضلوا من أجلها حتى أصبحنا أمام حقيقة يجب أن نعترف بها وأن نعيد حساباتنا العصرية على أساسها وهي أن الأقليات ليست بالضرورة أبدًا نقمة ولكنها يجب أن تكون دائمًا نعمة.

ويبقى القول أنه إذا كان القرن الماضي قد عرف بدايات الهجرة في صورتها الظاهرة، فإن أواخر القرن العشرين كانت تشهد وعبر قارات الأرض الست حضورًا مسيحيًا عربيًا مهجريًا واضح وضوح الشمس في ضحاها وهو حضور يمكن إلى حد بعيد أن يعد مزية كبرى إذا أعاد هؤلاء قراءة أوراق المجد العربي الغابر ودور أجدادهم فيه.

ومرة ثانية نقول أن شهادتهم في المجتمعات الجديدة التي ارتضوها أوطاناً لهم تجد طريقها إلى قلب وعقل مؤسسات دول المهجر بصورة يسيرة وعليه فإنهم شهود حق وعدل وفي اتصالهم بالمجتمعات الغربية لاسيما بوسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة فيها فائدة لا تحد ولا تعد فجورجي زيدان في زمانه لم يكن في أفضل الأحوال قادراً على أن يصل بكتاباته إلى أبعد من دول جنوب البحر المتوسط دون ما وراثها من حجر وبشر لكن هؤلاء وعبر نقرات خفيفة على فأرة الانترنت قادرون على الاتصال والوصل وإماطة اللثام عما يخفي من حقائق وتصحيح ما يشوه من صوره عمداً أو جهلاً ولعل الأزمات الأخيرة التي بدأت مع نهار الثلاثاء الأسود أي الحادي عشر من سبتمبر تؤكد بما لايدع مجال للشك أن الحاجة الوطنية إلى هؤلاء هي حاجة ماسة وهو مايدركه أعداء هذه الأمة ويقومون بين الفينة والأخرى بمحاولة إغراق هذا الجسر أو إحراقه بنار الطائفية تارة وبقطع الوصل مع الوطن اجتماعياً وأيديولوجيا تارة أخرى، مستغلين بذلك منظومات الخداع الديني، والتي برع فيها خبراء اليمين المسيحي الأصولي.

لكن الرهان هنا ومن جديد على أن هؤلاء على كثرتهم واختلاف أجناسهم وتعدد مشاربهم يحدوهم الحنين إلى رايات الوفاق ويتذكروا في زمان الافتراق أنه ما من نسمة حضارية هبت على العالم إلا وكان مشرقنا العربي مصدر هبوبها، وأنه ما من راية للتعايش المشترك ارتفعت حول العالم إلا وكنا نحن لها الرافعين.

# لويس ماسينون

## ١٨٨٣- ١٩٦٢

## رجل أحب المسلمين كأنه واحد منهم

جذبني الشرق إليه بماضيه الحافل بالديانات فإذا أنا غارق فيه إلى قمة راسي وإذا فلاسفة الإسلام ومتصوفوه يحظون جميعا بالقسط الأكبر من تفكيري وإذا أنا بعد دراستي إياهم أنجذب نحو المنبع الأول الذي استقى منه هؤلاء الفلاسفة تصوفهم وفلسفتهم "

الحديث عن لويس ماسينون حديث مشوق عن فرنسي عشق الشرق ورآى في التصوف الإسلامي الذي تمثل له في "الحلاج" مناجاة إلهية موجودة في كل الملل والنحل والأديان.. فمن هو ماسينون هذا العاشق الصوفي والمستشرق الفرنسي؟

ولد لويس ماسينون في فرنسا عام ١٨٨٣م وامتدت حياته حتى العام ١٩٦٢م وفي مقدمة الكتاب الذي نشر عن حياته السنوات الماضية والذي قام عليه نخبة من المفكرين وأشرف عليه الباحث الفرنسي جاك كيريل نقرأ أن ماسينون كان يرى المقدس في صميم كل إنسان وكل حياة وكان يعتقد ن علاقة البشرية بالأعالي هي علاقة أساسية وبالتالي فلا يمكنه أن يتصور وجود مجتمع إلحادي أو مادي بحت، ولهذا السبب فإن تطور المجتمعات الغربية أو قطاعات واسعة منها نحو التصور التكنولوجي والصناعي والوضعي للكون كان يقلقه.

وفي قناعته بأن المقدس جزء أصيل من حياة كل إنسان مثل ماسينون جسرًا حقيقيا من الفهم الواعي للإسلام والمسلمين فانفتح بحب على العمق الروحي مهما حتى وإن سبب له ذلك الكثير من المشاكل مع بني جلدته الذين ورثوا صورة سلبية جدًا عن الإسلام والمسلمين.

ويعقد الأب "باولو دالوليو" وهو واحد من أبرع من كتبوا مقارنات بين ماسينون المسيحي وماسينون المسلم إن جاز التعبير من خلال فهم مترابط ومتواز للمفاهيم الإسلامية الروحية الأساسية، وبين حياة ماسينون المسيحية من خلال دراسته وتأمله في التصوف وبشكل خاص من خلال هذا الترابط الروحي المدهش بين نفسه ونفس الحلاج، وبذلك أصبح ماسينون رويدًا رويدًا يعيش مسيحيته انطلاقًا من المفاهيم الإسلامية والتعابير العربية.

فمن الواضح مثلا أن الجهاد الأكبر "جهاد النفس" هو بنظرة المصطلح الإسلامي العربي للزهد والمجاهدة هو مفهوم مواز للسعي في سبيل القداسة والتلمذة على المسيح يسوع.

كما أن دراسته عن مفهوم "الفتوة في الإسلام" توازي مفهوم "النذر" عند الصليبين في سبيل استرداد القدس والمطوعة أي سكان الرباط هم كالفرسان

الصليبين سواء بسواء والمتصوف المسلم الملتزم بالجهاد الأكبر يرداف الراهب الذي يعيش النذور الانجيلية كما أن هناك توازيا بين الحج الإسلامي إلى مكة المكرمة وبين الحج المسيحي إلى القدس، وبين مفهوم الاحرام هنا، وهناك فالمرجع والأصل هو إبراهيم الخليل بعلاقته بإسماعيل من جهة وإسحق والقدس من جهة أخرى وإبراهيم هو أيضًا النموذج الأولى للمهاجر وكل من يخرج من ذاته في سبيل اللقاء مع الله يعتبر مهاجرًا ومن خلال مفهوم الشهادة والاستشهاد ناصر ماسينيون "دين المحنة" في شخصية الحلاج الذي صنع مكانته العلمية من خلال رسالته لدرجة الدكتوراه التي أعدها عنه بوصفه المتوصف الإسلامي الذي آعدمته السلطات المسلمة في بغداد عام ٩٢٢ م وقد كان عملا مهمًا بالفعل حيث ظهرت معرفة ماسينون بالإسلام وآدابه والعالم الإسلامي في القرون الوسطى عميقة وواسعة.

أصبح انشغال ماسينون بالحلاج وقدره مضفورا بحياته الدينية الخاصة التي تثورت بشكل غريب إلى حد بعيد من خلال التجرية المكثفة التي مر بها بالقرب من بغداد عام ١٩٠٨م عندما كان في الخامسة والعشرين من العمر كان قد ذهب إلى بلاد ما بين النهرين ضمن بعثة أثرية وأثناء هذه المهمة ألقت السلطات العثمانية القبض عليه للاشتباه به كجاسوس وأرسلته مخفورًا إلى بغداد بالقرب من موقع "لسيمان بيك"، حيث تنتصب بقايا قصر ساساني الذي دمره الفاتحون المسلمون في الماضي. أحس ماسينون تحت وطئة الخطر المهلك أنه في حضور وحي ما، لقد هزه الأمر حتى العمق وتحول من كاثوليكي ينقصه الإيمان إلى ورع كبير مؤمن متحمس، صار هذا الشكل المكثف من الكاثوليكية وصوفية الحلاج غير قابلين للتمييز فيما بعد.

لم يكن الحلاج مجرد شخصية تاريخية فقط بالنسبة لماسينون بل الشكل البدئي لأعمق تجربة يمكن أن يتوق إليها البشر، حتى أن الإسلام نفسه بشكل غير مرجح بما فيه الكفاية اندمج في ذهن ماسينون مع الكاثوليكية الزاهدة التي خبرها بتأكيدها على المعاناة وعلى الانعتاق عبر المعاناة.

ويمكن القول أن شخصية الحلاج لا بل نظرة ماسينون لشخصية الحلاج هي التي تعطينا مفاتيح فهم تطور ماسينون الروحي ولابد من ذكر عبارة الحلاج "أنا الحق" لفهم الرابط في تأمل ماسينون بين التصوف الإسلامي وبين تبنيه آراء غاندي فيما يخص الجهاد في سبيل الحق satyagraha واللاعنف ahimsa والحلاج هو الصوفي الذي أراد أن يعطي لحياته الروحية وشهادته أبعادًا اجتماعية

تخص الجماهير والدولة ولا تخص فقط نخبة من المختارين حيث يفضح حلاج المحبة الله إن جاز التعبير بكشف أحواله الروحية ويشكل خطرًا على المجتمع الشرعي.

وشهادة الحلاج تقودنا إلى فهم ماسينون للجهاد من الناحية الروحية، وهذا الفهم يدل على أن ماسينون كان يحاول ودائمًا النظر إلى الجوانب الايجابية في القرآن الكريم من وجهة نظر مسيحية تذهب وتتفق مع رؤي وتصورات بل وقناعات إيمانية مسيحية، فعلى سبيل المثال إذا كان المؤمن يتقرب إلى الله بجهاد النفس فلا فرق بين جهاد المسلم وجهاد المسيحي إذ أن غاية الجهاد هي واحدة فعندما درس ماسينون مفهوم الرهبانية في الإسلام وبرهن أن حديث لارهبانية في الإسلام حديث متأخر موضوع، وغير صحيح بين أن المفهوم القرآني للرهبنة مفهوم إيجابي. ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾ "سورة الحديد ٢٧ "

وتبقى الرهبانية عند ماسينون نوعًا من أنواع الجهاد المقدس والبرهان على ذلك هو الحديث المتأخر الذي يقول أن الرهبانية في الإسلام هي الجهاد في سبيل الله.

وقد لاحظ ماسينون كذلك أن هناك ترادفًا بين عفة الرهب في المسيحية وبين الامتناع عن العلاقة الجنسية أثناء الحج في الإسلام، فممارسة الخلوة في الإسلام تتطلب العفة وهذا ما نلاحظه عند الحلاج حيث عاش العفة التامة فترات طويلة من حياته.

وعلى كل حال فإن عفة القلب شرط اللقاء بالله إذا كانت أسرارنا بكرًا واننا نجد ماسينون يتأمل في ذهاب الحلاج لخدمة رسالة الإسلام، إلى ما وراء حدود دار الإسلام وقلاع المرابطين، حيث عاش جهاده مرتين بالذهاب إلى الهند وأيضًا مرتين في جهاده بالحج.

فالاستشهاد جهاد في سبيل الله يرادف تمامًا أضحية الحج حيث أن الصلاة وقت الحرب ركعتان وصلاة وقفة عرفات ركعتان كما أن صلاة العاشق

"ركعتان لا يصح وضؤهما إلا بالدم" على حد ما قال الحلاج وهو مصلوب وبعرفات تتحقق المساواة بين الرجل والمرأة كما أن الجهاد الأكبر واحد للاثنين.

والحج أيضًا هو جهاد النساء اللواتي يمارسن الجهاد أيضًا بخدمة الفقراء وحماية اليتامى والضيوف والغرباء، فمن الواضح تمامًا أن الحلاج بتقدمة نفسه يريد أن يؤدي الحج والجهاد معًا فهما أثناء الجلد يصرخ بعد ٤٠٠ جلدة فتحت القسطنطينية ثم يتوضأ بدم ذراعيه قبل الصلب، فعرق الابطال هو الدم والشهيد لا يحتاج للغسل بعد موته إذ هو طاهر قد تطهر بدمه والحلاج شهيد في الجهاد قتله الله.

ويرى ماسينون بوضوح الترادف بين موت المسيح على الصليب وبين موت الحلاج مع الأبدال في سبيل إصلاح الأمة وغفرانها فكما أن لموت المسيح بُعدًا نشوريا كذلك لموت الحلاج هذا البعد عينه فالابداليون بتقدمه آنفسهم يؤجلون قيام الساعة من خلال شفاعتهم الابراهيمية.

والشاهد أن عشق ماسينون للحلاج وحضوره في ذهنه ووجدانه بل وامتلاكه لشغاف قلبه قد جعل الرجل يعترف بالحضور الإلهي لدى غير المسيحيين، في وقت كان المسيحيون يعتقدون بأن لا خلاص خارج الكنيسة وأن الإيمان الوحيد المقبول عند الله هو الإيمان المسيحي، بالمطلق والمذهب الكاثوليكي على وجه الخصوص لكن ماسينون خرج على هذا الاجتماع قبل انعقاد المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني في أوائل الستينات من القرن الماضي ١٩٦٢م - ١٩٦٥م والذي فيه اعترف لأول مرة بالإسلام والمسلمين على آنهم يعبدون الله الواحد.

وفي كتابه عن الحلاج برهن ماسينون على وجود النعمة الالهية في الإسلام وبالنسبة له فإن الله كان يعني المحبة أي العلاقة والهبة و التواصل مع الآخرين والتعاطف مع آلامهم ومصائبهم ففيما وراء العقائد والايديولوجيات المختلفة تبقى هناك علاقة أساسية تجمع بين كل البشر وهي علاقة التواصل والتعاطف من خلال الحقيقة المطلقة التي تتجاوزنا جميعًا.

وقد وُجد شبه كبير بين فكر ماسينون وأطروحات المصلح الكبير المهاتما غاندي.

يقول ماسينون أن من يعتبر غاندي مخترعًا لمنهج للكفاح الاجتماعي والإنساني هو مخطئ فإنه ليس منهج بل هو موقف روحي صوفي، قبل أن يأتي

إلى ساحة السياسة، ويضيف ماسينون أنه وجد في غاندي أجوبة لتساؤلاته حول دور النخبة الروحية في المجتمع وحول إمكانية خرق دائرة انغلاقهم حيث رأى في موقفه الموقف القادر على رفع الجماهير إلى مستوى النضج الروحي الواعي فلم يستخدم الجماهير في سبيل قضية ما، بل خدمهم إذ دعاهم إلى دعوتهم العظيمة في سبيل الحق.

ومن هذا المنطلق فإن ماسينون على أثر غاندي كان يقترح على العالم نظاما اجتماعيًا ودوليًا جديدًا ولكن أي نظام؟ إنه ليس ذلك النظام الذي تريد قوى المال والرأسمالية أن تفرضه علينا اليوم بالقوة ولا ذلك النظام الذي تحاول قوى التزمت والتطرف أن تفرضه علينا بالقوة أيضًا وإنما هو ذلك النظام الذي يعترف بتعددية الثقافات والحضارات وبإمكانية التعايش فيما بينها من خلال التواصل الروحي والإنساني العميق.

وعنه يقول جاك بيرك المستشرق الفرنسي الشهير كان ماسينون يبدو وكأنه رجل عبقري، وقد وظف عبقريته كلها في خدمة العلاقات الكائنة بين فرنسا والعالم الإسلامي أو العربي تحديدًا وكانت علاقة مهددة باستمرار آنذاك وقد بلغ من العشق الصوفي عند ماسينون أن يرى في صلاة الحلاج الأخيرة من داخل سجنه مرآة لما قال به فلاسفة وقديسون مسيحيون من أمثال أوغسطينوس العاشق له أو شارل دي فوكو الذي عرف طريقه كذلك إلى ديار العرب والمسلمين.

هذا الدعاء هو الصلاة التي تلاها في سجنه عشية تعذيبه في الخامس والعشرين من مارس آذار من عام ٩٢٢ ميلادية الثالث والعشرين من ذو القعدة من عام ٣٠٩ للهجرة وقد اعتبره ماسينون نصًا يشرح أفضل شرح عقيدة التقديس لدى الحلاج ويمكن استخلاص الكثير من مبادئ الحلاج من خلاله أو من خلال ما تبقى منه وهو شبه مجهول إن لم يكن مجهولا وقد أورده ماسينون في صيغ أربع في تحقيقه كتاب "الطواسين" الذي صدر عام ١٩١٣ في باريس وأورد ماسينون في تحقيقه الترجمة الفارسية للدعاء.

وهذا الدعاء كان قد مثل في رواية "أوقات الحلاج" الأخيرة بحسب خادمه إبراهيم بن فاتك الذي سجن معه وابراهيم هذا من المتصوفة المعروفين ولعل الروايات المختلفة للصلاة تثبت أهميتها.

**صيغة أولى**

١. نحن شواهدك نلوذ بسنا عزتك لتبدي ما شئت من شأنك ومشيئتك.
٢. أنت الذي في السماء اله وفي الأرض اله.
٣. يا مدهر الدهور ومصور الصور يا من ذلت له الجواهر وسجدت له الاعراض، وانعقدت بأمره الأجسام وتصورت عنده الأحكام.
٤. يامن تجلى لما تشاء "كما تشاء" كيف شاء مثل التجلي في المشيئة لأحسن الصورة" وفي نسخة: مثل تجليك في مشيئتك كأحسن الصورة".
٥. والصورة هي الروح الناطقة التي افردته بالعلم والبيان والقدرة.
٦. ثم أو عزت إلى شاهدك في ذاتك الهوى اليسير.
٧. لما اردت بدايتي واظهرتني عند عقيب كراتي ودعوت إلى ذاتي بذاتي.
٨. وابيت حقائق علومي ومعجزاتي.
٩. صاعدًا في معارجي إلى عروش ازلياتي عند القول من برياتي.
١٠. إني احتضر واقتل واصلب واحرق واحمل على السافيات الذاريات.
١١. وأن لذرة من ينبوع مظان هيكل متجلياتي لاعظم من الراسيات.

**صيغة ثانية**

١. نحن بشواهدك نلوذ وبسنا عزتك نستضئ لتبدي ما ثبت من شأنك.
٢. وأنت الذي في السماء عرشك وأنت الذي في السماء إله وفي الأرض إله.
٣. "...."
٤. تجلى كما تشاء مثل تجليك في مشيئتك كأحسن صورة ولا صورة.
٥. والصورة فيها الروح الناطقة بالعلم والبيان والقدرة والبرهان.
٦. "........."
٧. كيف أنت إذا مثلت بذاتي عند عيانك ذاتي.
٨. وأظهرت معراج علومي بعجزي.
٩. "........................."
١٠. إني أخذت وحبست وأحضرت وصلبت وأحرقت واحتملت الزيادات اجزاي
١١. وأن ما بقى في معناي متخليا أعظم من زوال الراسيات.

والمؤكد أن قراءة الصلاة الأخيرة للحلاج كما أوردها ماسينون تقودنا إلى معرفة عمق أعماق الرجل والذي عمل بصبر لتحقيق أمنيته في الانتماء إلى سلسلة البدائل متشوقًا إلى الاستشهاد في الصحراء مثل شارل دي فوكو معيدا

للمسلمين ما سبق أن قدموه له حين سبق وأخلي سبيله. ورعته عائلة مسلمة في بغداد ليصبح من الرجال الذين تستمر شفاعتهم عبر الأجيال ويشكلون تلك السلسلة من النفوس البطولية أو كما يدعوهم اصدقاء الله وهم ذاتهم "شركة القديسين" كما في المسيحية وأن هذه السلسلة هي العمود الفقري للتاريخ البشري.

وهكذا يتضح أن الحلاج بوصفه أحد البدائل قد قبل ظلم مجتمعه وطلب الاستشهاد وصلب مرفوضًا ومنبوذًا ومهمشًا.. لكنه عبر العصور رويدًا رويدًا تقبله الوعي الأخلاقي للعالم الإسلامي وها هو يقوم بعمله البدلي في حياة الناس بعد قرون طويلة كما في حياة ماسينون نفسه.

إن هذا الإيمان الكوني قد دفع بماسينون ليقوم بنشاطات اجتماعية كثيرة كزيارة المساجين وتعليم المهاجرين الجزائريين وممارسة الاحتجاج اللاعنفي على تجاوزات الحكم الاستعماري الفرنسي انطلاقا من إيمانه بفضيلة الضيافة الابراهيمية التي يلغيها الوجود الفرنسي، هذه الفضيلة التي تعكس وجود الله في الغريب والمنفي، والمضطهد وفي إحدى الروايات فإنه عند ساعة موت ماسينون كان قد بلغ به التماهي مع شخصية الحسين بن منصور الحلاج أنه ظل يردد الآيتين الكريمتين اللتين طالما رددهما في حياته ﴿ لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ ﴾ (الجن: ٢٢).

- ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ﴾ (الشورى: ١٨).

والحديث عن ماسينون في نهاية الأمر يحتاج إلى الاستماع إلى شهادة شاهدين عدول من كبار العقول التي عرفتها مصر وهما عميد الأدب العربي طه حسين ومجدد الثقافة والتنوير المصري الدكتور ثروت عكاشة، أما عن العميد فهناك من يرى أنه كان يذهب إلى المحاضرات التي يلقيها ماسينون عن الفلسفة الحديثة في الجامعة المصرية والتي كان يلقيها باللغة العربية على الرغم من أنه ينطقها بصعوبة بالغة.. ولكن الموضوع كان شيقًا جدًا بالنسبة لطه حسين الذي أراد الانفتاح على العالم الحديث بأي شكل.

ويضيف العميد: لا أعرف لماذا كان يتوجه إليّ بالخطاب أولاً دون غيري من الطلبة ثم دعاني إلى زيارته في مكتبه بالمعهد الفرنسي في القاهرة وقد التقيا

هناك مرات عديدة وتشكلت بيننا أواصر صداقة متينة، وقد اختارته جامعة القاهرة كمسئول عن الطلبة الذين أرسلتهم في بعثة دراسية لإكمال شهادة الدكتوراة في فرنسا وكنت من بينهم وقد ساعدني كثيرًا هناك.

ثم يردف طه حسين قائلاً "بعد نهاية الحرب العالمية الأولى كنا نلتقي سنويا إما في القاهرة وإما في باريس وفي كل مرة كنا نتناقش طويلاً كانت تعجبني معرفته الكبيرة بالدراسات الإسلامية وبخاصة التصوف الإسلامي كان يهتم بالشئون الإسلامية وقد أصبح أستاذا لعلم الاجتماع الإسلامي في الكوليج دو فرانس.

ويؤكد العميد "كان ماسينون يحب المسلمين كما لو أنه أحدهم دون أن يتخلى عن ارتباطه العميق بإيمانه المسيحي الذي راح يعمق حتى أصبح صوفيا كان يكره الاستعمار الأجنبي للبلدان الإسلامية وأشد ما كان يكرهه هو استعمار فرنسا ـ بلده ـ لإفريقيا الشمالية.

أما الدكتور ثروت عكاشة ففي الجزء الأول من مذكراته المعنونة "مذكراتي في السياسة والثقافة" فيذكر أنه إذا كان الاستشراق الفرنسي يحظى اليوم بقدر رفيع فذلك لأن هذا الشيخ الجليل "ماسينون" أضفى عليه وثبة روحية كان لها أثرها في إنعاش كافة البحوث وإن كانت له قبل أن يخوض في هذه الدراسات الشرقية الإسلامية عنايته الخاصة بالدراسات الكلاسيكية القديمة الأمر الذي أثار فضولي فسألته في أحد لقاءاتنا: لم تركت هذا إلى ذاك فقال جذبني الشرق إليه بماضيه الحافل بالديانات فإذا أنا غارق فيه إلى قمة رأسي وإذا فلاسفة الإسلام ومتصوفوه يحظون جميعًا بالقسط الأكبر من تفكيري وإذا أنا بعد دراستي إياهم انجذب نحو المنبع الأول الذي استقى منه هؤلاء الفلاسفة تصوفهم وفلسفتهم ألا وهو الدين الإسلامي الذي نزل وحيا على رسول المسلمين.

ومهما يكن من أمر فإن ماسينون رفع راية عالية عنوانها الوحدانية في الله وانجذاب القلوب الخاشعة المؤمنة له من كل الأمم والشعوب والقبائل ذلك لأن تلك الراية مصدرها وهي ترتاح فيه وهي دعوة للتوفيق لا للتفريق كان ماسينون راعيها ومجسرها ومفجر ثورة فكرية عرفتها فرنسا بصورة خاصة في انفتاحه على العالم الشرقي والإسلامي بنوع خاص.

# مكسيم رودنسون

## ١٩١٥م — ٢٠٠٢م

## العدالة طريق العيش مع العرب

يجب العيش مع العرب في مطلق الأحوال وحتى مع العرب غير الراضخين هناك فرصة واحدة ولو ضئيلة خارج المأزق الذي حشر فيه الصهاينة أنفسهم وهو تقديم إمكانية التفاوض للعرب، ليس على قاعدة قبولهم بالأمر الواقع، بل من خلال إعلان مبدأ العدالة وتعويضهم عن الضرر الذي لحق بهم. فهي اللغة الوحيدة التي يمكن أن تلقى قبولا من العرب وتثير عندهم رغبة في الاعتراف المنتظر.

هكذا رأى وأجمل مكسيم رودنسون رؤيته بعد أن أكد أن وجود اسرائيل هو فعل كولنيالي في المنطقة العربية.

ولد مكسيم رودنسون في كنف عائلة يهودية روسية متواضعة في السادس عشر من كانون الثاني (يناير) ١٩١٥م من والد روسي وأم بولندية، قضيا على أيدي النازيين، وفي السابعة عشرة من عمره بدأ بدارسة اللغات الشرقية في فرنسا، إضافة إلى لغات أخرى حتى وصل عدد اللغات واللهجات التي يتقنها نحو ثلاثين، لذا فقد استحق وعن جدارة لقب "لغوي نادر".

أما موقعه وموضعه في علمنا هذا فيرجع إلى أنه ليس مجرد صديق فحسب للعرب كما قال جاك بيرك، بل لا أغالي إن قلت أنه كان منظّرًا ضليعا لشئون العرب والمسلمين في الخمسين سنة الماضية وحتى وفاته في الثالث والعشرين من مايو عام ٢٠٠٢.

وضمن مؤلفاته الغزيرة كان "محمد" عام ١٩٦١، "والإسلام والرأسمالية" ١٩٦٦ "والماركسية والعالم الإسلامي" ١٩٧٢، "العرب" ١٩٧٩، "سحر الإسلام" ١٩٨٠، "شعب يهودي أم مسألة يهودية؟" ١٩٨١، "الإسلام سياسة وإيمان" ١٩٩٣، "وبين الإسلام والغرب حوارات مع جيرار خوري" ١٩٩٨.

لم تكن البدايات ممهدة لأن يصبح رودنسون ذو شأن، فولادته في باريس لأبوين مهاجرين فقيرين كان أمر كاف بأن ينضم إلى زمرة الضائعين، وفي أحسن الأحوال تحتويه فئة العمال ولاسيما أن تربية والديه غلب عليها الفكر الشيوعي والاشتراكي وإن كان لهذا الأمر مزية فإنها محت بذلك الفكر آثار الانتماء اليهودي.

لكن رودنسون الذي لم يتلق علومه في الصغر كان عصاميا وأنهى دراسته وحده من دون مساعدة وبدأ العمل في عمر مبكر، فعمل حاجبا يلبي طلبات ويودع رسائل وأوراق بين الشركات إلى أن قرر التقدم لامتحان الدخول إلى معهد اللغات الشرقية حيث لم يكن مشروطا دخوله بحيازة شهادة البكالوريا وهناك برع رودنسون في دراسة اللغات التركية، العربية الفصحى والحبشية، كما تعلم اللهجات المغربية والشرقية وفي العام١٩٣٧ وما أن تخرج من المعهد اعتبر نفسه

جاهزًا للخيارات الصعبة فقرر أخيرًا الانتماء إلى الحزب الشيوعي وذلك بعد رفض كلي لاعتناق عقيدة أهله اليهود.

وإذا كان لرودنسون من جسر بين الشرق والغرب فقد اختار الرجل القضية الفلسطينية ليجعل من ذاته معبرا ينقل من خلاله إلى الغرب أبعادها، وعدالتها ويفضح بشكل كبير شاف واف الفعل الاستعماري الإسرائيلي.

كان رودنسون يُعرف نفسه على أنه ملتزم بالدفاع عن القضية الفلسطينية الامر الذي أثار حفيظة المتدينين اليهود وغالبًا ما تعرض لهم بالانتقادات التي طالت الديانة اليهودية كما العقيدة الدينية التي تحكم سياستهم في العالم.

كما عرف منذ بداياته بأنه من كبار المستشرقين الغربيين الذين تميزوا بجرأة في مواجهة الأفكار الموروثة حول موضوعات كثيرة أبرزها الأفكار المكتسبة حول الاستشراق بحد ذاته، وهو اعترف أكثر من مرة بأن انجذابه لهذه المهمة لم يكن بسبب نزعة عنصرية معنية لكنه بسبب اكتشافه أن الدول الأوروبية وحكوماتها، لم تكتف بالدافع العلمي للمعلومات التي جمعها علماؤها عن بلاد الشرق، بل أنها استفادت منها للسيطرة على هذه البلاد واستعمارها وصرح في كافة كتبه ومقالاته بأن الدول الأوروبية وجدت في المعلومات والدراسات اللغوية والأنثروبولوجية والفقهية وحتى الفلسفية والأدبية وغيرها وبالتاريخ الوقائعي لبلاد الشرق مساعدًا قويا لها في بسط هيمنتها على هذه البلاد لنهب خيراتها طوال أكثر من قرن، وغالبًا ما تساءل رودنسون حول الاستعمار وطرح أسئلة جريئة مثل "بما يمكن أن نصف علماءهم الذين كانوا يأتون كرحالة هل كانوا جواسيس يجمعون المعلومات لحكوماتهم من أجل التحضير للاستعمار؟ أم نعتبرهم علماء فنجلّ أعمالهم مثل بوركهارت الذي اكتشف مدينة البتراء وآثار أبي سمبل أو غيره من العلماء؟

لم يكتف رودنسون بالتنظير في قضايا الالتزام والتفاهم بين الشعوب، بل تجاوز ذلك نحو واقع عملي، من خلال ترجمة التزامه هذا بدفاعه عن قضايا العرب والمسلمين ومواقفه المؤيده لعدالة القضية الفلسطينية، وقد أنشأ مع المستشرق الفرنسي جاك بيرك مجموعة من الأبحاث والأعمال من أجل فلسطين ودافع عن خيار التزامه هذا أمام موجة كبيرة من الانتقادات والتهديدات، وضعته وجهًا لوجه أمامها أصوله اليهودية وما صدر عنه من مواقف معادية للصهيونية وقناعاته بزوال دولة إسرائيل أمام صمود الشعب الفلسطيني وإرادته

ويقول في هذا السياق "رأيي الخاص أنه ليس على اليهود البقاء هناك إن أمن بلدهم ليس هناك وعليهم الرحيل وإلا فستكون العواقب وخيمة على نحو أو آخر وحسب رأيي لن يتمكن ثلاثة أو اربعة ملايين يهودي من الوقوف أمام ملايين الملايين من العرب.

وفي ايام نكسة يونيو من العام ١٩٦٧ ينشر رودنسون مقالا في صحيفة اللوموند الفرنسية ذائعة الصيت تحت عنوان " العيش مع العرب " نراه فيه يُذكر إسرائيل بأن القوة ليست الطريق ذلك رغم الانتصار الإسرائيلي الساحق الماحق على العرب في ذلك الوقت.

يقول رودنسون "اختارت الدول الصهيونية العيش في فلسطين في وسط العالم العربي الخيار خطير، والإنذارات توالت على لسان يهود من غير الصهاينة أو المؤيدين للصهيونية، والذين طالما مثلوا غالبية الشعب اليهودي في نهاية المطاف أصرت المجموعة المخططة والمؤسسة للدولة على خيارها وتتحلى اليوم نتائج هذا الخيار كلها.لا مجال للعودة إلى الوراء لكن الشجرة نعرف من ثمارها.

ويضيف "أن الازمة الحاضرة تظهر واقعًا جديدًا مرتهنا بتطور الاحداث فخطاب إسرائيل إلى العالم العربي كان بسيطًا وواضحًا حتى الآن نحن هنا لأننا الأقوى وسنبقى طالما نحن الأقوى، شئتم أم أبيتم، وسنبقى دائمًا الأقوى بفضل صداقتنا في العالم المتقدم عليكم استخلاص العبر والاعتراف بهزيمتكم وضعفكم وقبولنا كما نحن عليه فوق الأرض التي أخذناها منكم كيف الجواب إن لم يكن بالرضوخ أو بالتحدي؟

وفي ذلك الزمان وفي اوج احتدام المواجهات العسكرية وإراقة الدماء كان رودنسون يتحدث عن التسويات السلمية المشروطة من خلال شعاره " يجب العيش مع العرب في مطلق الأحوال وحتى مع العرب غير الراضخين لكن كيف؟ يجيب قائلاً " هناك فرصة واحدة ولو ضيئلة خارج المازق الذي حشر الصهاينة أنفسهم فيه على غرار مرتزقة قرطاجة في استعراض "لاهاش" وهو تقديم امكانية التفاوض للعرب ليس كما يعتمد منذ ٢٠ عامًا على قاعدة قبولهم بالأمر الواقع، ولو على حسابهم بل من خلال إعلان مبدأ العدالة وتعويضهم الضرر اللاحق بهم ذلك لأنها اللغة الوحيدة في رأيي والتي يمكن أن تلقى قبولا من الطرف الآخر والوحيدة التي يمكن أن تثير عند الآخر رغبة في الاعتراف المنتظر بالواقع

القومي الإسرائيلي الذي بنى من طريق الإنجازات والعذابات طوال العشرين عامًا الماضية وليس من طريق ذاكرة وهم عمره عشرون قرنا.

كان ويمكن لإسرائيل حسب رؤية "رودنسون" وقتها أن ترفض هذا التنازل العلني كما كان يمكن للشوفينية المتقدمة في صفوف سكانها في ذلك العهد أن ترى في الأمر "جبنا" وتعارض الموقف الحكيم المطلوب ويمكن لإسرائيل كذلك أن تربح هذه المعركة خصوصًا بدعم حماتها الأقوياء.. وهو ما حدث بالفعل في عام ١٩٦٧ وقد كان رودنسون يقرأ التاريخ وهو بلا شك يفعل من خلال عمله كمؤرخ لذا أكمل هذا الطرح بقوله "من لا يشك في أن هذا النصر يمكن أن يتكرر؟ أليس الاضطراب الحالي مؤشرًا إلى ذلك؟ وهو ما قد حدث في اكتوبر من عام ١٩٧٣م.

ويذكر رودنسون إسرائيل ومؤيديها المتشددين وأصدقاءها الأوفياء بأن الصهاينة سعوا بكل قوتهم إلى استمالة القوى العظمى الأوروبية منذ أيام هرتزل فيقول "إنهم طلبوا دعم القيصر والسلطان والبابا وانكلترا وما كان لهم أن ينجحوا لولا وعد بلفور وهو خطوة سياسية بريطانية ولولا قرار التقسيم في الامم المتحدة عام ١٩٤٧م وهو فعل سياسي سوفياتي - أمريكي.

ويخلص رودنسون للقول "ها نحن في العام ١٩٦٧م وقد آن الأوان للسعي إلى اتفاق مع العرب الذين انتزعت منهم هذه الأرض ليس العرب المرغوبين كما نريدهم مؤيدين باعجوبة للاطروحات الإسرائيلية من خلال ما يطالبهم به أنصار الصهيونية في العالم واساتذة الأخلاق وقارئو العهد القديم وادبيات الماركسية اللينينية بل مع العرب كما هم عليه الرافضين من دون مقابل لغزو تم على حسابهم أنه وضع مؤسف لكن أي حل آخر هو مضيعة للوقت.

وقبل هذا التاريخ تعرض رودنسون لهجوم صهيوني مكثف فقد شارك في أحد أيام مايو ١٩٦٦م في ندوة سياسية نظمها الاتحاد العام لطلبة فلسطين في إحدى قاعات العاصمة الفرنسية باريس في ذكرى النكبة وفيها أكد على مواقفه المناصرة للحل العادل للمسالة الفلسطينية، والمناهضة للصهيونية، ما أدى إلى تعرضه هو واخرون شاركوا في هذه الندوة التي غطت وقائعها بعض الصحف الفرنسية لحملة صحافية وإعلامية شرسة من قبل الاوساط الصهيونية وانصارها التي وصفته بأنه "اليهودي الكاره لنفسه".

كان المناخ السائد في فرنسا آنذاك مناخًا مناصرا لإسرائيل في معظم الاوساط والتيارات السياسية، ووسائل الإعلام باستثناء الشيوعيين والماركسيين وقلة من المهتمين بالشأن العربي من المثقفين أو الدبلوماسيين السابقين الذين نشأوا أو عملوا في المنطقة العربية، لكن رودنسون الذي ازعجته هذه الحملة على الصعيد الشخصي لم تتاثر مواقفه بها بل عاد وكررها في مناسبات عدة وخاصة بعد حرب العام ١٩٦٧م، ولاسيما في العدد الخاص الذي أصدره الاديب والفيلسوف الشهير جان بول سارتر من مجلته الدورية الفكرية الثقافية "الأزمنة الحديثة" والذي تناول بشكل خاص الصراع العربي الإسرائيلي.

كتب رودنسون مقالا مطولا تحت عنوان " إسرائيل.. واقع استعماري" وهو مقال صدر لاحقا ككتاب مستقل، وترجم إلى عدة لغات بما فيها العربية وكانت اجابة رودنسون في مقالة على علامة الاستفهام في العنوان لا تحتمل اللبس حيث آكد على كون إسرائيل واقعًا استعماريا مع التاكيد في الوقت ذاته على أن أي حل للصراع لا يمكن آن يقوم على أساس علاج مشكلة سياسية وإنسانية وبشرية بخلق مشكلة جديدة في وضع تعيش مثله بلدان أخرى في العالم الثالث كانت تضم كتلا بشرية ناجمة عن الغزو الاستعماري مثل جنوب إفريقيا؟

ولم يكن رودنسون كذلك بعيدًا عن الإسلام ففي عام ١٩٦١م صدرت سيرته حول النبي محمد التي تعتبر إلى حد اليوم المرجع الغربي الآساسي للطلاب والباحثين كما آنه باعترافه الكتاب المفضل من بين الكتب الكثيرة التي وضعها.

وبعد اربعين عامًا على صدور كتابه هذا لا تزال هذه السيرة مرجعًا مهمًا مع آنها وضعت استنادًا إلى نظرية الماركسية كذلك كل قراءته للعالم الإسلامي، لكن ذلك لم يمنع أبرز النقاد من تقدير أعماله التي جمعت الحس التنقيبي بالقدرة على التحليل والاستيعاب.

كان رودنسون واحدًا من الخارجين على المالوف الذين اعطوا تجارب مغايرة فهو مثلاً حاول تفسير النبؤة القرانية تفسيرًا ينسجم مع ظاهرة النص القرآني ويتوافق مع الواقع التاريخي، وبهذا الطرح وضع أمام القارئ رؤية جديدة تستند إلى الآرقام، لاسيما فيما يتعلق بنبؤة قرانية تحتم انكسار اليهود وانتصار المسلمين في معركة عقيدية فاصلة بشر بها القرآن الكريم منذ نزوله

يقول رودنسون في كتابه "اوربا وسحر الإسلام" عن العلاقة العاطفية التي جمعته بالإسلام والمسلمين كرست سنوات طويلة من عمري لدراسة الإسلام والتاريخ الإسلامي والشعوب الإسلامية، وفي الوقت نفسه كنت شغفا بالطريقة التي تعامل بها الشعوب الأوروبية خاصة الباحثين منهم الشعوب الإسلامية ويتساءل عن هذا الشغف لماذا؟ ويجيب ربما لأني لم أكن متيقنا من فهمي للإسلام.

وكما ذهبت بعض الآراء العربية فإن كتاب رودنسون المشار إليه ليس كتابا عن الصور التي وجدت في المخيلة الغربية عن الإسلام، ولكنه قراءة في تاريخية الصورة فقارئ الكتاب يعثر على منعطفات اسهمت في تشكيل الصورة أو مرت بها وردنسون يؤمن بأن الصورة وقولبتها تغيرت بتغير العقلية الأوروبية القديمة والحديثة فموقف الغربيين من الإسلام والمسلمين تاثر بفهمهم للعالم وموقع الإسلام به.

وإذا كان جمهور عريض من المؤرخين في الغرب يرون بأن بداية المعرفة الحقيقية للغرب بالإسلام كانت إبان الحروب الصليبية فإن رودنسون يغاير ذلك الرأي ويذهب إلى أن المعرفة بين الطرفين هي نتاج لمنظومة الوعي الغربي بالعرب، التي استوت على ادراجهم في خانة التهديد قبل أن يتحولوا إلى مشكلة فعلية " حسب رؤاهم " اقلقت الامبراطورية الرومانية الشرقية "البيزنطية" ودفعتها للتهاوي وبعد ذلك تأتي مرحلة الاندلس وموقف الكنيسة التي كانت في العصر الوسيط تمثل السلطة المرجعية للفكر وأثر الإسلام الحضاري في المفاهيم الغربية، إذ أن كتابات الفلاسفة المسلمين بعد ترجمتها ظلت مدارًا للبحث، واختلف الغربيون عليها حيث ولدت أكثر من مدرسة لفهم الرشدية أو لفهم ابن سينا فالتلاقي والاختلاف بين عالمي الغرب والإسلام نبع في النهاية من أسس المرجعية الفكرية للثقافة الأوروبية.

وقد بقى رودنسون على اصراره حتى آخر رمق حيال كل افكاره ومعتقداته وعرف بموضوعية الباحث على الرغم من تعارض ذلك مع موقفه من اصوله اليهودية فهو لم يستعمل اساليب حماسية تغيب هنا وتمجد هناك بل بقى على حسه الباحث باسلوب علمي صرف فظل ينتقد العرب والعالم العربي، حين يلزم الانتقاد ولم يطمح إلى إعطاء الإسلام مرتبة مرتفعة على بقية الأديان بل حاول وبكل بساطة أن يقارب الإسلام عقلانيا وبنفس الأسلوب الذي قارب فيه جميع الأديان والايديولوجيات ويشير بعض كبار المؤرخين العرب مثل محمد حربي

الجزائري إلى أن رودنسون مثل وعن جدارة القنطرة التي نحن بصدد الحديث عنها ففي كتابه "جاذبية الإسلام" أراد إدراك جوهر هذا الدين عبر القرون الوسطى الأوروبية وحتى القرون المعاصرة، والحديثة منها ثم في كتابه "الاسلام والرأسمالية" نرى أن العنوان لا يستدعي رغما ولا اضطرارا كتاب "ماكس فيبر" عن الأخلاق البروتستانتية والرأسمالية.

وفي مؤلفه "الإسلام: سياسة وإيمان" تتبدى بعض عناوين فصوله ذات دلالة عميقة مثل "الانقسامات السياسية في الإسلام كخدع أيديولوجية" مرتبطة بالأوضاع الراهنة مثل "بزوغ التشدد الإسلامي" وفي صدد الإرهاب يتحدث عن الإرهاب كذريعة.

وبحال من الأحوال نجد عند رودنسون اهتمامًا باطروحات صموئيل هنتجتون عن صدام الحضارات إذ يقول بما أن الحضارات يمثلها الدين فهي تتشابه في هذه النقطة بالذات ولكنني جزئيا أحاول أن أجد صيغة لانقاذ الدين نوعًا ما يعني أنه يجب أن لايطغي الدين على الإنسان، هذا هو رأيي يجب أن لايطغي الدين على الإنسان وينطلق رودنسون في رؤيته هذه من معرفته بخفايا الثقافتين اليهودية والإسلامية وفي هذا السياق قام بمشاركة صديقة المؤرخ جيرار خوري في نشر كتاب حواري تحت عنوان "بين الإسلام والغرب".

يقول جيرار خوري المؤرخ الذي عرف رودنسون منذ أكثر من ثلاثين عامًا أنه كان شخصا شديد التدقيق، والتمحيص، وموسوعيا كبيرًا، ويصف أعماله المعترف بها من قبل الأوساط العلمية بأنها تصل في الوقت نفسه إلى العموم وإن تلك الكتابات ساهمت في تعديل القراءة الطائفية للإسلام الذي لا يعجز حسب رأيه عن الدخول إلى الحداثة وهو إسهام كبير على نقيض ما نشهده اليوم أي الجهل بالإسلام.

ويضيف خوري أن رودنسون الذي عمل من أجل التقارب بين ضفتي المتوسط عن طريق التعددية وحوار الثقافات لقى أشد العنت والانتقادات التي وصلت إلى حد التهديدات المباشرة من جراء دعوته للثقافة ولاحقاق الحق فيما يخص القضية الفلسطينية، وذلك بسبب صفته كيهودي وواقع حاله كمعاد للصهيونية كما أنه لم يكن يتخذ أبدًا موقفًا من دون الأخذ بالاعتبار كل الاحتياطات اللازمة فقد كان يخشى خدش الحقيقة العلمية وجرح الآخرين كان يقف عند

مفترق القيم اليهودية وتلك الخاصة بالعالمين العربي والإسلامي في جو من التفاهم وليس الاستبعاد.

واحسب كذلك أن رودنسون قدم للعرب والمسلمين خدمة جليلة، ففي حواراته مع خوري ينبه إلى أزمة العقل العربي، وما تعرض له في العقود الثلاثة الأخيرة من القرن العشرين من جراء تصاعد النهج الأصولي الذي يستخدم وسائل المعلوماتية والانترنت من جانب ويجابه الكثير من معطيات الحداثة على الناصية الأخرى.

يقول رودنسون "إن العرب أو المسلمين لم يكتشفوا الفكر النقدي ولم يطبقوه على تراثهم، كما فعل فلاسفة أوربا وهو يعتقد أنه بناء على هذه المعطيات فإن جمهور المسلمين لا يزال يعيش في مرحلة العصور الوسطى التي خرجت منها على نوع ما وربما كان حديث رودنسون هنا دعوة حقيقية لإعادة أعمال العقل وطرح قضية عدم مساءلة الايقونات جانبا ذلك لأنه إذا كان يقصد وهو يفعل بلاشك القول أننا بحاجة إلى فترة طويلة لحل مشكلة التزمت والعقلية الطائفية الموروثة فهو هنا على حق بدون شك.

وفي دعوة رودنسون هذه هزة عنيفة للعالم العربي فقد استطاع أن ينقل التجربة الأوروبية للعالم العربي، من خلال افكاره التي حملت أول ما حملت المطالبة بالتغيير وأن أول شئ ينبغي تغييره هو الفكر وهو عقلية الناس وبعدئذ يجئ التغيير الآخر من تلقاء ذاته، ويؤكد على أنه لولا فلسفة التنوير الأوروبية لما كانت الثورات السياسية الحديثة أي الثورة الانجليزية فالثورة الأمريكية فالثورة الفرنسية ولا غرو في ذلك فالفكر هو أعلى وأنبل شئ في الوجود.

ورغم أن رودنسون قام ولامراء في ذلك بتجسير الهوة بين العقلية الأوروبية والعربية، بابلغ صورة وعبر أكثر من أربعة عقود إلا أن حظوظه كما حظوظ جاك بيرك لم تكن طيبة بحال من الأحوال في العالمين العربي والإسلامي إذا استثنينا لبنان التي خدم فيها كجندي في الجيش الفرنسي وبقى معلمًا لسنوات في صيدا فقد منع كتابه الأشهر محمد من التدريس في الجامعة الأمريكية وصبت عليه بعض الأقلام جام غضبها بسبب هذا الكتاب الذي قال عنه إنني كتبته بملء الحب والإنصاف للنبي محمد ولكن كثيرًا من العرب والمسلمين عاملوني وكأني عدو لهم وكأني أمريكا أو إسرائيل اللتان صددتهما لسنوات طويلة.

زار رودنسون القاهرة أكثر من مرة منها مرة بعيدة في منتصف القرن الماضي ومرة في عام ١٩٦٨م ويصف الكاتب المصري الكبير كامل زهيري هذه الزيارة بقوله منذ نحو نصف قرن زار رودنسون القاهرة واكتشفت فيه شغفه بالبحث في الواقع الاجتماعي بعيدًا عن النظريات، وفاجأني بطلب غريب وهو أنه يريد أن يحضر حفلة زار وقلت له أن الظاهرة اختفت تقريبًا من القاهرة وليس أمامك سوى ذكريات قوت القلوب الدمرداشية لأنها كتبت بالفرنسية عن الزار عام ١٩٣٧م فقال أنه يريد أن يكتب بحثًا ويحتاج إلى مشاهدة الزار بعينيه وازاء حماسه عثرت له على مكان بشارع الامام محمد عبده جوار الأزهر الشريف وبات رودنسون يومين وهو يلبس الجلباب الأبيض ويضع يديه في دماء الذبيحة كما روى وهذا يدلل على أنه المستشرق الملتزم بالبحث في دقائق الأمور وتفاصيلها دون مداراة أو مواراة.

وإذا كان مكسيم رودنسون قد رحل فإن اعماله الباقية تشير ومن جديد إلى وحدة النوع الإنساني وإلى إمكانية التلاقي عبر الجسور ومهما اتفقنا أو اختلفنا مع بعض آراءه وهو من طبائع الأمور، فإننا لا يمكننا انكار أن الرجل الذي نشأ في بيئة يسارية ويهودية الاصل الديني ولكن معارضه في أن واحد قد شكل علامة حقيقية على إمكانية العودة إلى الأصل المدافع عن الحق المجرد والعدالة المنزهة عن المصالح جهة العالمين العربي والإسلامي دون أن تلوثه نزعات الاستعلاء أو خدمة المشاريع الاستعمارية التي اتسمت بها عدة كتب وكثير من الكتاب الاستشراقيين في الغرب لم يقدر لهم أن يجسروا بحياتهم وأفكارهم الجسر بين الغرب والشرق.

# الأب جورج شحاته قنواتي

## ١٩٠٥- ١٩٩٤

## لا ثقافة بلا دين ولا دين بلا ثقافة

إن الله واحد حي قيوم خالق السموات والأرض محب البشر سبحانه ذو الغفران والرحمة الحميد المجيد مرسل الأنبياء ومحي الأموات ومروض الأنفس داعي الإنسان لسواء السبيل أليس في هذا نقاط التقاء بين المسيحية والإسلام؟

بات من المؤكد في السنوات الأخيرة أن الحضارة العربية والإسلامية تمر بأزمة حقيقية تستهدف زعزعة وجودها، ومكانتها السامية ورسالتها الحضارية فيما بين صراع الحضارات ونهاية التاريخ وجد الإسلام نفسه يتعرض حملة ضارية اتخذ فيه الدين ستارًا لتحقيق اطماع الامبراطورية من جديد أيا كان اسم أو رسم أو جسم تلك الامبراطورية.

والمحقق تاريخيًا أن تلك الحضارة كانت تراكمات حياتية وعطاء متصل لليهود والمسيحيين والمسلمين بحسب التسلسل التاريخي أعطى كل من اتباع الديانات الثلاثة ما تيسر له من إسهامات حضارية في ظل الدولة الإسلامية الكبرى، والتي مثلت الامبراطورية العثمانية آخر صورها.

لذا فإنه من البديهي أن يدين العالم الغربي اليوم لاؤلئك بما آل إليه في الكثير من مناحي حياته من منطلق أن تلك الحضارة على تعدد الوانها وتنوع بناتها كانت القنطرة التي نقلت إليهم الحضارة بعد أن مثلت الجسر بين الحضارة المصرية والإغريقية للعالم الأوروبي القديم.

وفي هذا الإطار يمكن الحديث عن المسيحيين العرب الذين احتوتهم مظلة الإسلام والدولة الإسلامية وقدموا إسهامات حضارية متنوعة في إطار بوتقة إنسانية تتسم بالتعدد وتتصف بالشراكة استفادت من إطار ومساحة الحرية التي اتيحت للعلماء والمفكرين في ظل الحضارة العربية التي لم تعر للدين أو العرق أي اهتمام يدفع إلى عالم التحيز والتحزب، لذا لم يكن غريبا في ظل تلك السماوات الحضارية المفتوحة آنذاك أن تعلو راية العرب وتخفق حضارة الإسلام والمسلمين وفي هذا الإطار يأتي الحديث عن الأب جورج شحاته قنواتي العالم والراهب الدومنيكاني ودوره الرائد في الحياة الفكرية العربية والإسلامية المعاصرة كنموذج حقيقي على مشاركات المسيحيين العرب من جهة وعلى سماحة ورحابة الفكر الإسلامي من جهة ثانية.

ولد جورج شحاته قنواتي بالإسكندرية في السادس من شهر يونيو عام ١٩٠٥م وتوفي صباح الجمعة الموافق ٢٨ يناير من عام ١٩٩٤م.

اتجه في بداية حياته إلى دراسة الكيمياء وعلوم الصيدلة في مصر ثم التحق في بيروت وهناك حصل على درجة الدكتوراه في علم الاقربازين كما كان يطلق عليه وقتها.

لكن المعامل والمختبرات لم تكن إلا بداية الطريق للتفكر والتدبر العقلي فكان أن حمل الرجل رحاله إلى الآفاق الارحب باحثًا عن حياة غير اعتيادية واهبًا نفسه للعلم والدين فانضم الدكتور قنواتي إلى رهبنة الاباء الدومينكيان.

أما عن هذه الرهبنة فقد ظهرت في القرن الثالث عشر الميلادي ومؤسسها هو القديس عبد الأحد "دومنيك في اللاتينية" ومنذ نشأتها اهتمت بالشرق الأوسط وعلومه وآدابه وفلسفته وقد استقرت مبكرًا في القسطنطينية وتونس وبغداد ثم في الموصل فيما بعد.

وقد كان لرجال هذه الرهبنة فضل كبير على أوربا الوسطى والحديثة ذلك أنه بفضل تراجمهم من العربية اكتشف معلمو الرهبنة في اللاهوت الفيلسوف أرسطو وابن رشد ومن بين هؤلاء المعلمين البير الكبير وتوما الاكويني اللذان قاما بتفسير ابن رشد وابن سيناء.

وتقول الروايات في ذلك الوقت أن التبادلات الفكرية قد تطورت إلى نقاشات تدور في داخل الأراضي الإسلامية وهكذا نشأ نشاط يستمر حتى اليوم في معاهد الدومينكان في العالم العربي والغربي ويحرص الاباء على مواصلته ويتمثل هذا النشاط على سبيل المثال في معهد الدراسات الشرقية للاباء الدومنيكان في القاهرة "إيديو" IDEO الذي أنشئ منذ أكثر من خمسين عامًا من أجل إقامة حوار علمي وموضوعي بين الإسلام والمسيحية وذلك بعيدًا عن أي تبشير أو تطويع سياسي.

والحق أن الحديث عن الأب جورج قنواتي لا يمكن أن يكون من خلال بضعة سطور ذلك أن ما خلفه وراءه من آثار تمتد الحاجة عندها إلى مؤلفات بأكملها ذلك لان الرجل نذر نفسه للحوار بين الثقافات وللتأصيل للوجود العربي والحضارة العربية والإسلامية في قلب العالم الغربي كاشفًا وطارحًا ما جادت به قريحة علماء العرب وما امتدت به أياديهم حاملة شعلة التنوير عبر مئات السنين وهو مايريد قطاع كبير منهم اليوم انكاره بشكل أو بآخر.

ويقول الدكتور عاطف العراقي التلميذ النجيب والابن البكر للأب جورج قنواتي "أنه من المؤسف أن أكثرنا يكتب عن موضوع الحوار بين الثقافات تارة وموضوع السلام بين الأديان تارة أخرى، دون أن يضع في اعتباره الاهتمام الضخم من جانب الأب قنواتي وطوال أكثر من نصف قرن من الزمان لهذا الفرع من البحوث.

كتب الأب قنواتي آلاف الصفحات كان شغله الشاغل من خلالها إرساء لغة الحوار في المجال الإنساني عن طريق الثقافات والأديان وعلينا الرجوع إلى مؤلفات ودراسات عديدة له منها المسيحيون في مصر وفلسفة ابن رشد التي تميز فيها تميزا فائق الحد والوصف وفي صحة إيمان ابن رشد في ضوء الجدال بين فرح انطون والشيخ محمد عبده وتاريخ الصيدلة والعقاقير في العصر القديم والعهد الوسيط.

ولقد كان الحوار المسيحي الإسلامي الشغل الشاغل للأب قنواتي وكان ثمرة ذلك أن قام الفاتيكان بتعيينه مستشار لهذا الحوار في السكرتارية الخاصة بالمؤمنين غير المسيحيين فاشترك في المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني المنعقد في روما من ١٩٦٢م - ١٩٦٥م وألقى عدة محاضرات في روما وفي مدن أخرى لتنشيط الحوار بين الأديان والثقافات، كما قام بإعداد المواد الخاصة بالمسيحية في دائرة المعارف الشاملة والتي قام بتحضيرها الأستاذ الدكتور "شفيق غربال" ترجمة دائرة المعارف جامعة كولومبيا كما شارك في حلقات دراسية للتقارب بين الأديان وبين الكنائس.

لم يكن الرجل مجرد صاحب دعوة طنانة أو حامل راية زاعقة داعيًا لحوار غير المجدي لكن دعوته كانت تستند على الدوام إلى قناعة راسخة بأن في الحضارة والفكر الإسلامي ما يجب التوقف أمامه كثيرًا وطويلا للاستفادة من معينه الذي لا ينضب.

يقول الأب قنواتي عن تراث الإسلام واثر التصوف الإسلامي على الغرب أن هناك أمرين يدخلان في هذه الناحية:

الأول: يتناول المصادر الإسلامية للكوميديا الإلهية التي بينها العلامة الأسباني الكبير المتخصص في الإسلاميات "ميجيل اسين بلاثيوس" ثم ألقى عليها ضوء مجدد عندما قام "شيروللي" بنشر كتاب المعراج.

والموضوع الثاني: هو فكرة الحب الرفيع الذي يمكن أن يربط بالحب الافلاطوني وعند العرب يسمى الحب العذري الذي عرف في القرون الإسلامية الأولى ويمكن ربطه كذلك برسالة صغيرة كتبها ابن سينا عن الحب واسماها "رسالة العشق" ويعلق على هذا بأن الفلسفة الإسلامية من جهة تعين مرحلة هامة في تطور الفكر الإنساني في جملته كما أن جهد الفلاسفة المسلمين يبدو محاولة نبيلة لكي يتجاوز الإنسان حدود نفسه ويحقق رغبته في الاتحاد بالله وينظم الدولة من أجل إسعاد الإنسان وهكذا فإن الروح التي كانت تحدوهم تستحق البقاء.

ويضيف أنه من جهة أخرى فإن المؤلفات الكبرى لمتصوفي الإسلام العظام ستظل تستحوذ على إعجاب كل أولئك الذين تستجيب قلوبهم للجمال ويتعطشون إلى المطلق فهم يستطيعون أن يجدوا فيها عندما تتاح لهم الفرصة غذاء لتشوقهم الروحي أفليس هذا أفضل دليل على خلود أعمالهم؟

وإذا كانت العرب تفخر بفيلسوفها ومعلمها الأشهر "أبو الوليد محمد بن رشد" فإن الأب قنواتي كان له نصيبٍ الأسد بأن يفتخر بدوره بأنه قدم أول وثيقة جمعت بين دفتيها عرضًا مفصلاً للمؤلفات الكاملة لابن رشد في لغتها العربية أو ترجماتها اللاتينية والعبرية ذلك أنه في الأمس البعيد اضطلع الأب قنواتي بتكليف من الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية بحصر مؤلفات ابن سينا المطبوعة والمخطوطة ورحل من أجلها ما رحل واخرج فيها عام ١٩٥٠م كتابًا أفاد منه الباحثون والدارسون ولعل من الخير أن يعاد طبعه لكي تستفيد منه أجيال كاملة لم يقدر لها أن تطلع عليه.

وعن هذا العمل الخلاق يذكر الدكتور إبراهيم مدكور "أنه يوم أن فكرت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في إقامة مهرجان لابن رشد بمناسبة مرور ثمانية قرون على وفاته كونت لجنة خاصة رأت أن الأب قنواتي خير من يقوم على تولي دراسة ببليوجرافية عن الفيلسوف العربي لتخصصه وخبرته التامة وصلته الوثيقة بالهيئات والمراكز الثقافية التي تعني بالفكر الإسلامي في العالم بأسره وهو فوق هذا رحالة يجوب الأفاق ويزور المكتبات الكبرى ومعاهد المخطوطات ويكمل الدكتور مدكور " كنا منذ ربع قرن نتندر ببساطة السحري الذي ينقله حيث شاء وقد أصبح هذا البساط حقيقة واقعة وتقبل الأب الكريم هذا العبء راضيًا واضطلع به اضطلاعًا تامًا وعني به

مقيمًا ومسافرًا وها هو ذا يخرج لنا سفرا في مؤلفات ابن رشد فيه إسهام واضح وعطاء سخي.

وإذا كان المفكر والأب قنواتي قد رحل عن دار الفناء إلى دار البقاء قبل اندلاع أزمة التصادم والافتراق تحت زعم تصادم الحضارات وهو زعم مقنع لمواجهات الأديان فإن الرجل كان قد تحدث طويلاً عن مواطن الالتقاء خاصة بين المسيحية والإسلام داعيًا إلى الاتفاق حولها بدلاً عن الافتراق من حولها ومن هذه الأسس المشتركة في رأيه رحمه الله:

١. الله واحد
٢. الله حي قيوم
٣. الله خالق السموات والأرض
٤. الله محب للبشر
٥. الله ذو الغفران والرحمة
٦. الله هو الحميد المجيد
٧. الأنبياء يرسلهم الله
٨. الله يحي الأموات ويرضي الأنفس
٩. الإنسان والعبادة
١٠. الإنسان واعترافه بحقوق الله

لقد تحدث الأب قنواتي عن هذه الأسس حديثًا دقيقًا يكشف عن إطلاعه الواسع، مؤكدًا كيف استطاع المسيحيون أن يعيشوا في إطار الحضارة الإسلامية العربية ويشعروا أنهم من لحامها وسداها وأنهم ليسوا غرباء عنها بل من العناصر الفعالة في تشييدها ومساعدة إخوانهم المسلمين لصيانة عقائدهم في مختلف ميادين العلوم ومقتضيات الحضارة.

ولم يكن الأب قنواتي في حقيقة الأمر ضربًا غريبا على الحضارة العربية والإسلامية ذات الصدر الرحب إذ أن كلنا يعلم أن حركة الترجمة التي ازدهرت في العصر العباسي قامت على أكتاف مجموعة من المترجمين كان أغلبهم من النصارى ومن بينهم حنين بن اسحق واسحق بن حنين وقسطا بن لوقا وعبد المسيح بن ناعمة الحمصي وقد شجع الخلفاء حركة الترجمة والمترجمين فقاموا بتشجيع المترجمين تشجيعًا ماديًا ومعنويًا خاصة بعد إنشاء بيت الحكمة.

وللأب قنواتي مؤلف متميز للغاية تحت عنوان "المسيحية والحضارة العربية" وفيه يروي قصة الوجود المسيحي في العالم العربي منذ بدء انتشار المسيحية وفيه يفرد فصلاً كاملاً للقبائل المسيحية التي عاشت في شبه الجزيرة العربية، وفي مقدمتها بكر وتغلب بنو وائل بن ربيعة وهما من أقوى القبائل العربية وقد بلغ من قوتها أن قال عمر الشيباني فيها لو تأخر الإسلام لأكلت بنو تغلب الناس وهي رواية يؤكدها التبريزي في شرح معلقة عمرو بن كلثوم ويذهب إليها الأب لويس شيخو اليسوعي من بيروت في أواخر القرن التاسع عشر وقد قال عمرو بن كلثوم متفاخرًا بشرف قبيلته "ظعائن من بني جشم بن بكر.. جمعن بميسم شرفًا ودينا" والدين المقصود هنا هو المسيحية حيث كانت هي ديانة بني تغلب ويشير الأب قنواتي إلى تحول بني تغلب إلى المسيحية كما يشير أيضًا إلى الغساسنة وهم عرب سوريا الذين هاجروا من اليمن وإلى اللخميون ويذكر الأب قنواتي ما أورده السيوطي في كتابه الإتقان في علوم القرآن عن نصارى مكة غير العرب قبل الإسلام وكيف كانت توكل لهم الأعمال التي تحتاج إلى وعي وإدراك وتذكر كتب التاريخ الإسلامي كثيرًا من هؤلاء الأغراب مثل صهيب الرومي الذي عمل مع عبد الله بن جدعان ثري مكة حتى أصبح تاجرًا ثريًا ولعل قصة فراره إلى المدينة ومطاردة قريش له وقبولهم منه افتداء نفسه بماله الذي أخفاه بمكة توضح لنا ما بلغه من ثراء.

وقد بلغ تأثر أهل مكة بالمسيحيين أن جعلوا في دعائم الكعبة صور الأنبياء وصور الشجر وصور الملائكة فكان فيها صورة إبراهيم خليل الله شيخ يستقسم بالأزلام وصورة الملائكة عليهم السلام أجمعين وتقول الرواية الإسلامية "فلما كان يوم فتح مكة دخول رسول الله فأرسل الفضل بن العباس فجاء بماء زمزم وامر بثوب مبلل بالماء وأمر بطمس تلك الصور فطمست ووضع كفيه على صورة عيسى بن مريم وأمه وقال امحوا كل شئ إلا ما تحت يدي فرفع يديه عن صورة عيسى بن مريم وامه ونظر إلى صورة إبراهيم فقال: قاتلهم الله جعلوه يستقسم بالازم ما لا براهيم والازلام " المفصل ٤٣٦ : ٦"

وفي عرض وسرد الأب قنواتي للروايات السابقة تأصيل لما كان للمسيحية والمسيحيين في صدر الإسلام من مكانة وكرامة تدفع بمفكري ومنظري العصور الحديثة لإعادة النظر ومن جديد في الطروحات الشقاقية وعدم الالتفات إليها والبحث حول كل ما هو مشترك وايجابي وبناء لخير الإنسان وصلاح حال الإنسانية.

وفي الحديث عن الأب قنواتي تعترضنا عبارة الاستشراق والمستشرقين والحق أنه إذا كانت التهمة الجاهزة للمستشرقين بأن أغلبهم قد تجنى على التاريخ العربي والإسلامي سواء كان بقصد وسوء طوية أو عن جهل وحسن نية فإن هناك نذرًا يسيرًا من هؤلاء كان صادقًا إلى درجة بعيدة ولا ينكر باحث موضوعي دور رجال من أمثال لويس ماسنيون أو جاك بيرك في التاريخ المعاصر أو ريموند لول وفرانسيس الاسيزي في التاريخ الوسيط وهنا فإن الأب قنواتي ذاته كان خير مثال في التاريخ المعاصر وبخاصة منذ منتصف القرن العشرين حتى وفاته في أواخر القرن ذاته على المستشرق المستنير ذلك أنه بعد دخوله الرهبنة وانضمامه إلى الآباء الدومنيكان وقد كان ذلك في بلجيكا وفرنسا نجده يتخصص طبقًا لما جرى عليه العرف عند الآباء الدومنيكان في دراسة الفلسفة واللاهوت فيحصل على درجة الدكتوراه في الفلسفة ودرجة الدكتوراه في اللاهوت وبعد ذلك نجده يتجه إلى الدراسة الاستشراقية ORIENTALISM وفي سبيله لهذا النوع من الدراسات قدم العديد من الأعمال المؤلفة والمترجمة والتي أن تدلنا على شئ فإنما تدلنا على ما للأب قنواتي من فضل في هذا المجال شأنه شأن بعض المستشرقين العادلين والمستنيرين ومنذ عودة قنواتي إلى مصر بعد أن أنهى دراساته في بلجيكا وفرنسا عام ١٩٤٤م جعل من دير الآباء الدومنيكان كعبة لطلاب العلم.

أنشئ دير الآباء الدومنيكان في القاهرة عام ١٩٢٨م ويقع الدير بالقرب من القاهرة الفاطمية على أطراف حي الجمالية العزيز على الكاتب نجيب محفوظ تحيط بالدير حديقة مليئة بأشجار الكافور التي توفر جوًا من الهدوء في قلب الضوضاء التي أصبحت من سمات القاهرة.

وقد بدأ هذا الموقع ممتازًا لمؤسسي معهد الدراسات الشرقية للآباء الدومنيكان في القاهرة " ايديو " وهم الآباء جورج شحاته قنواتي وجاك جوميه وسرج دي بوركي وقد قرر هؤلاء منذ عام ١٩٣٧م أن يكرسوا أنفسهم للثقافة العربية في هذا البلد الإسلامي بهدف مساعدة المسيحيين على اكتشاف ومعرفة عالم ديني لم ينل حظه من المعرفة والتقدير وسرعان ما منح الكاردينال تيسران المتخصص بدروه في الثقافة العربية، وكان يرأس مجمع الكنائس الشرقية في الفاتيكان لهذه المهمة، تأييد الكنيسة ولكن الفريق المؤسس اضطر أن ينتظر انتهاء الحرب العالمية الثانية حتى يتمكن من بدء العمل.

هكذا فتحت أبواب حديقة الدومنيكان ومكتبة الدير العملاقة ومعهده المتميز لاستقبال المثقفين المصريين وكبار رجال الدين المسلمين، كانوا أو المسيحيين وكافة المتخصصين في الإسلام وكذلك الكثير من الباحثين في جميع أنحاء العالم فالدراسة المشتركة للتراث العربي والإسلامي الأدبي والعلمي أو الفلسفي هذا التراث الذي هو منبع التيارات والمذاهب المعاصرة تسمح ببناء جسور صلبة بين الثقافة الإسلامية والثقافة الغربية.

وتضم المكتبة الجديدة نحو ١٠٠ ألف كتاب و ٦٥٠ ألف مخطوط بالإضافة إلى عدد لا يحصى من المجلات والدوريات والمنشورات التي تحتوي عليها المكتبة.

ولمكتبة الدومينيكان تاريخ عريق إذ قد تردد عليها أعلام الفكر المصري والعربي وكان من أبرز هؤلاء عباس العقاد وتوفيق الحكيم وطه حسين وأنيس منصور ولويس عوض وسلامة موسى والشيخ عبد الحليم محمود شيخ الأزهر الأسبق. وفي شهر أكتوبر من عام ٢٠٠٢م أعيد افتتاح مكتبة الآباء الدومنيكان بعد أن تم تجديد بناءها وشارك في الافتتاح الدكتور محمود حمدي زقزوق وزير الأوقاف المصرية وحضر خصيصًا من روما الكاردينال البطريرك موسى داؤد رئيس مجمع الكنائس الشرقية في الفاتيكان وشارك أيضًا البابا شنودة الثالث بطريرك الكنيسة القبطية الارثوذكسية في اعمال الافتتاح. ويومها صرح الأب جون جاك الدومنيكاني رئيس الدير بأن افتتاح المكتبة كسبًا ثقافيًا عريقًا لمصر، وإشارة إلى الوحدة والتلاحم بين أصحاب الأديان عبر الزمان والمكان دون فرقه أو تفريق.

ويبقى القول أن الأب قنواتي الذي كان الدافع الأول وراء هذه النهضة الدومنيكانية في مصر كان ومنذ زمن طويل قد ارتضى لنفسه ولنا طريق النور وليس طريق الظلام ثقافة المحبة والتآلف وليس ثقافة العدوان والكراهية.

كان جورج قنواتي رسول للسيد المسيح داعيًا إلى نشر مقولته "طوبى لصانعي السلام فإنهم أبناء الله يدعون" وهي دعوة حرص على نشرها في أقطار المسكونة كلها شرقًا وغربًا محاضرًا ومعلمًا في جامعات الولايات المتحدة الأمريكية، وفي جامعات أوربا وكانت كلها تسارع في إهداءه دكتوراتها الفخرية اعترافًا بفيض علمه وإدراكا لأهمية فكره التنويري الذي يمثل الطريق المفتوح طريق السلام والحوار وليس المقصود الطريق المسدود بالعقبات الفكرية التصادمية .

دافع الرجل عن الإسلام وبقية الأديان دفاعًا مجيدًا وفي أحاديثه المدوية عبر القرطاس والقلم، كان الرجل مثالاً للصمت صمت العالم وللتواضع، تواضع الحكيم الزاهد فلم يبحث عن الأضواء أو الشهرة رغم أن مؤتمرًا علميًا عبر نحو خمسين سنة لم يخل من وجود اسمه مشاركًا ومحاضرًا.

وآخيرًا يلزم القول أن كاتب هذه السطور، لم يعمل قلمه في حديث إنشائي ذلك لأن الآدب وعلى حد وصف عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين "ليس إنشاء فحسب بل هو إنشاء ووصف" وقد قدر للكاتب أن يصف بعض ما لمسه وهو الكثير بل الكثير جدًا عن ومن العملاق ذلك أنه في منتصف الثمانينات أراد الالتحاق بهذه الجماعة الرهبانية، وقد تلقى خطابه الأول من هذا العملاق مرحبا به وداعيًا إياه للحضور والتعرف عن قرب على الآباء الدومنيكان، ويومها كانت النصحية الأول للمفكر الكبير آن أذهب وابحث عن إرادة الله في حياتك بين إخوانك من البشر كن رسولا على مثال معلمك " لا يصيح ولا يخاصم ولا يسمع آحد صوته في الشوارع، قصبة مرضوضه لا يكسر وكتانا مدخنا لا يطفى " وهي آشارات تحمل في مجملها الحث على المحبة والتعايش المشترك موصيًا وصيته الآخيرة وصيحته الشهيرة أحرص على التزود بالمعرفة صباح مساء كل يوم ذلك آنه لا دين بلا ثقافة ولا ثقافة بلا دين.

ويبقى قول ابن سيراخ "آجسامهم دفنت بسلام وأسماؤهم تحيا مدى الأجيال ونبقى في زمن الظلام والصدام نفتقد إلى بدر من نوعية الآب قنواتي طالبين المولى آن يرسل فعلة لحصاده وما هذا على الله بعزيز.

# جاك بيرك

## ١٩١٠- ١٩٩٥

## صديق العرب..ضيف على الإسلام

بعد أن فرغت من ترجمة معاني القرآن الكريم كرست كل وقتي للقراءة في علم الحديث لأنني اعتزم عمل دراسة إذا أمهلني العمر حول الأحاديث النبوية الشريفة لإبراز ما تتضمنه من معان ومدلولات خصوصا إنني أحب هذه الأحاديث وأرى أنها تجمع إلى جانب الصبغة الدينية الصبغة الإنسانية التي يجد فيها المسلم والمسيحي على السواء المعاني الرفيعة التي تغذي الروح وتسمو بالعقل والوجدان

ربما لم تعرف فرنسا في عصورها الحديثة، بعد لويس ماسينيون قامة فكرية خدمت قضايا العرب والمسلمين، بقدر ما قدر لجاك بيرك أن يفعل وإن كان الرجل قد لقى من الهوان ونكران الجميل ما جعله يمضي حزينًا حزينًا حزينًا بعد أن لقى جزاءات كثيرة على شاكلة جزاء سنمار.

وجاك بيرك هو عالم الاجتماع الفرنسي المرموق في القرن العشرين، ومدير المعهد الفرنسي للعلوم واللغات الاجتماعية لفترة طويلة والمستشرق المتمكن وصاحب الرؤي الجريئة حول القضايا الثقافية العربية وأحد كبار الدعاة للثقافة المتوسطية.

في العام ١٩١٠م في مدينة وهران بالجزائر ولد "جاك" لوالده اوجستين بيرك حد ضباط جيش الاحتلال الفرنسي وهناك درس في مدارسها الابتدائية والثانوية وسافر إلى فرنسا ليدرس علم الاجتماع في جامعاتها إلى أن آصبح ذلك لعالم الاجتماعي ذا الطابع الفلسفي وفي فترة وجوده في المغرب ما بين عامي ١٩٤٢م و ١٩٥٣م كتب في اوقات فراغه التي انتزعها من واجباته الرسمية دراسة انثروبولوجية" عن مجتمع قبائل البربر منح على اساسها شهادة الدكتوراة في عام ١٩٥٦م وفي الوقت نفسه كرسيًا في التاريخ الاجتماعي للإسلام المعاصر والذي استمر في شغله حتى تقاعده في عام ١٩٨١م.

ومفهوم السبب وراء الدور الذي لعبه جاك بيرك كحلقة وصل وكجسر بين الغرب الأوروبي والعوالم العربية يلزمنا العودة إلى بعض كتاباته الغزيرة وبشكل خاص إلى سيرته الذاتية "مذكرات شاطئين" لذا لا نغالي إن قلنا آنه كان وبحق جسر للربط بينهما ونستطيع استخلاص صورة كاملة عن تعاليمه وعن الأسباب التي جعلت منه ما كان.

ففي آثناء خدمته كضابط في المغرب نما ببطء داخله ميل للثورة ضد مواقف وآراء والديه وكذلك رغب فى التمرد الذي أصبح موجهًا ضد الحكم الفرنسي والمستوطنين الفرنسيين في شمال افريقيا فأصبح بيرك يحمل رؤية رومانسية عميقة عن المجتمع الاجنبي الذي أصبح موضوعًا لعواطفه وفي حالته كان هذا المجتمع هو المجتمع العربي وفي المغرب بشكل خاص لذا نراه يقول في

أحد كتبه المنشور عام ١٩٨٠م "إن مكانة العرب في حياتي كانت أصيلة" فالمغرب بالنسبة له ضالته المنشودة التي فقدها مع الفرنسيين في شمال إفريقيا.

وفي العام ١٩٥٣م تخلى بيرك عن منصبه في المغرب ليصبح مسئول اليونسكو في مصر حيث كتب "ذهبت إلى العالم الثالث".العالم الثالث بما عرفه بيرك ويراه كانتفاضة عنيفة للطاقات الكامنة التي تتغلب على سطحية الحضارة الحديثة.

ويرى أن عودة الإنسانية الكونية الحقة ستكون عبر العنف، ذلك لأن الإرهاب كان محنة، طقس من الطقوس الضرورية لانعتاق المضطهدين الانعتاق الذي كان فكرة عن المجتمع العالمي في المستقبل وعند بيرك أن داخل كل منا يكمن عالم ثالث ومستقبل العالم الثالث هو أيضًا مستقبلنا.

نظر جاك بيرك إلى الزعيم المصري جمال عبد الناصر على أنه الشخص "الذي جعل من الممكن للمصريين أن يصلوا إلى مرحلة النضج" وذهبت رؤيته في أن العرب هم القوة المناهضة للظلم وحلفاء للديمقراطية والاشتراكية فقد أيد جبهة التحرير الوطني الجزائرية في ثورتها ضد الفرنسيين وقد سمح له تأييده هذا كما يراه هو بالعمل في وقت واحد من أجل حرية الجزائر ومن أجل روح فرنسا الحقيقية المفقودة.

ولمصر مع جاك بيرك وقفة لا مناص منها، ففي واحد من كتبه المتخصصة في تاريخ واجتماعيات الإسلام والعرب "مصر إمبريالية وثورة" استخدام الرجل عبارة عميقة الدلالة وكثيفة الإيحاء لتوصيف المصير الدرامي لمصر والذي يتبدى في سلاسل الغزوات والهجومات التي خبرتها طوال آلاف السنين من عمرها الممتد والضارب جذوره في التاريخ يقول بيرك "إن مصر الخاسرة دائمًا لم تخسر أبدًا" وهي عبارة في حاجة لتأمل ودرس شديدين فهذه العبارة الرائقة كزلال ماء النيل حمالة أوجه كما يرى البعض شأنها في ذلك شأن الصياغات الشديدة الاقتضاب والنازعة إلى أن تكون ضربًا من الأمثلة الحكيمة.

ربما كان بيرك يشير بعبارته وبالدرجة الاولى إلى تلخيص أحوال مصر قبل حصولها على استقلالها الوطني الحديث على أن هذا لا يمنع من الاشتباه أو الذهاب إلى القول بأن المستعرب بشغف كبير قد خلص بعد قراءته لاحداث التاريخ واستعادته لمشاهد الماضي الذي تعاقب على الوحدة الانثروبولجية المصرية المثلة في "الفلاح المصري" إلى الاعتقاد بوجود كيانات مصرية ثابتة "انطولوجية"

تتلقى ضربات الزمن ولكمات التاريخ ومن عجب[1] ويبقى هناك ترجيح آخر ربما ذهب إليه جاك بيرك واعلى من شأنه وهو التمييز الذي رسخه مؤرخو مدرسة الحوليات الفرنسيين بين الظواهر ذات الامد الطويل بحيث لا تقوى تقلبات التاريخ على زعزعتها الا بصعوبة شدية.

وعندي أن مقولة بيرك مصر الخاسرة دائمًا لم تخسر أبدًا آنها كانت تنسحب على الكثير من البلدان العربية التي رضخت طويلاً لنير العبودية في ظل الأنظمة الإمبريالية وبذلك كان بيرك يمثل حافزًا أو ملهمًا للشعوب التي كانت تعاني من الاحتلال ويجعل من مصر نموذجًا يحتذي فجاءت ليبراليته وصداقته للعرب مبكرًا جدًا تدفعهم إلى التطلع إلى الأمد الطويل والقفز فوق كبوات الماضي.

ويلخص الرجل المستشرق موقفه في إجابة شافية وافية عندما قدم نفسه للإعلام العربي في إحدى زياراته لدمشق عام ١٩٨٠م حين يقول "ولدت في الجزائر في العام العاشر من هذا القرن كان أبي موظفًا كبيرًا في زمن الاستعمار الفرنسي للجزائر وعشت صباي كله في الجزائر ومنذ ذالك ١٩١٠ اقف إلى جانب قضاياكم ولست أجاملكم أنتم أبناء الأجيال التي تجئ بعدنا بل هي أحاسيس نفسي الصادقة التي ترافقني منذ صباي إلى شيخوختي.. ويستطرد قائلاً لكن هل يقارن موقف الذين يدافعون عن حق شعب مظلوم المدافعة الإنسانية، بوقف من يقف منها صامتا؟ كلا ويضيف أعني بالموقف من قضية فلسطين فلماذا وقفت إلى جانب العرب منذ البداية؟ ويجيب لانهم مظلومين وليس لانهم عرب مظلومون وأقول ما كاد هؤلاء أن يتحسسوا طعم التحرر من الامبرياليتين القديمتين التقليديتين إن جاز التعبير حتى وجدوا على ظهورهم إمبرالية آخرى تمتلك التناقضات والسلبيات.

ويكمل: لقد لاحظت حولي وحتى الآن أن أنصار الصهيونية وأنا لا أخلط بين اليهودية والصهيونية قد استعملوا طرقًا سفسطائية ونكرانا للحق وتبعية للتقاليد الامبريالية الجشعة التي تمنيت أن تكون مبادة في عصرنا الذي نعيش بشكل غير معقول ومناف للمنطق.. إذن موقفي ناتج عن حكم فلسفي إنساني شامل، إضافة إلى الحساسية الخاصة التي تحملني إلى الوقوف بجانب العرب

(١) فإن تلك الكيانات تبقى صامدة صابرة أبد الدهر فيما تذوب اللكمات وتتمحي الضربات في مشهد يعجب له التاريخ ذاته.

بمقتضى الجوار التاريخي المستمر والاستئناس المباشر بالمجتمع الذي تمتعت به منذ صباي حتى هذا السن من العمر وماذا عساي قائلاً بعد؟

يقول الكاتب والمفكر السوري الكبير جورج طرابيشي إن جاك بيرك الذي بدأ عالم اجتماع وانتهى مستعربًا، كان يبطن أيضًا قماشة فيلسوف، وأن أكثر ما ميز بيرك في عمله كمستعرب أنه أصر على التعامل مع الواقع الحي لا مع النصوص الميته وفهم الاستعراب على أنه حوار بين ثقافتين الأوروبية المسيحية، والعربية الإسلامية وأن لدى كل منهما ما تقوله للاخرى وما تغني به الاخرى.

وللغوص أكثر في اعماق الجسر الذي مثله بيرك بذاته يلقي المرء نظرات على كتابه الذي هو أقرب إلى الوصية والذي جاء تحت عنوان "ويبقى هناك مستقبل" وهو ليس كتابًا بل حوار مطول في تسعة عشر فصلاً كان اجراه معه الناقد الادبي الفرنسي "جان سور" في أعقاب إصداره لترجمته الجديدة للقرآن الكريم وهو حوار تحول بعد وفاة بيرك إلى ما يشبه الوصية الأخيرة.

ويهمنا هنا على وجه الخصوص الوقوف على موقع، وموضع بيرك من الحاجة التاريخية والحضارية إلى أن يتحول المتوسط إلى بحيرة للمعنى " من خلال إعادة بناء الشراكة المتوسطية الأوروبية - العربية لذا فإنه يؤكد على الحاجة الروحية الماسة إلى اعادة بناء الحوار الديني بين المسيحية والإسلام، وبيرك لا يخفي إيمانه المسيحي أو مذهبه الكاثوليكي لكنه يؤكد أن حياته الطويلة الامد في أرض الإسلام وفي ثقافة الإسلام قد أحدثت تعديلاً جوهريًا في رؤيته للمسيحية بالذات فالإسلام يجهل مفهوم الخطيئة الاصلية والذي يرى بيرك ربما خلافا للاهوتين مسيحيين آخرين أن القديس اوغسطينوس هو الذي أدخله في صلب المسيحية ابتداء من القرن الرابع للميلاد فصار يقوم لها مقام المرآة التي تنظر منها إلى نفسها، ويبدو أن بيرك كان يضمر كرها من طبيعة اوديبية لهذا المفهوم اللاهوتي فاوغسطين هو اسمه الاول واسم أبيه مثلما هو اسم ابنه.

ويرى طرابيشي أن بيرك كن إجلالا خاصًا لهذا القديس وخصه باطروحته الاولى في دراسته الجامعية ومن دون أن يشرح أسباب انقلابه على سميه، فإنه يشير إلى تبرمه من المازوخية العقلية التي أروثها القديس اوغسطينوس للمسيحية والتي جعلت متابعته من الكاثوليكيين من أمثال باسكال والأب رانسيه يرون أن الحياة ليست سوى تهيئة للموت.

وفي نظر بيرك أن الله يحب الحياة لأنه خلقها وقد تكون الحياة مسرحًا لقدر كبير من الألم والعذاب لكنها أيضًا مصدر كبير للفرح وفرح الحياة هذا هو الذي يمكن للإسلام أن يعيد بثه في المسيحية في ما لو قيض لهما الدخول في حوار وتنافذ بوصفه "دين الفطرة" وهذا لا يعني طبعًا أنه ليس لدى المسيحية ما تضيفه إلى الإسلام.

فكما أن الإسلام يحترم الطبيعة التي طلع عليها الإنسان كذلك فإن المسيحية تحترم الشخص الذي في الإنسان.

وهنا تحديدًا يمكن أن تكون نقطة تلاقي المسيحية والإسلام فمن شأن الإسلام أن يساعد على تطبيع الإنسان ومن شأن المسيحية أن تساعد على تأنيس الطبيعة وباجتماعهما تتطبع الثقافة وتتثقف الطبيعة وتدب الحياة من جديد في ما يحلو لبيرك أن يسميه أسطورة الاندلس: أسطورة أوربا التي كانت في جزء منها يوما ما مسلمة والإسلام الذي كان من خلال رجالات العرب في الاندلس أوربيا.

والحاصل أن الفارق الشاسع بين أطروحات بيرك الكاثوليكي للتلاقي مع العالم الإسلامي وبين أمثال المنظرين الجدد للبروتستانتية من أمثال جيري فالويل وبات روبرتسون الذين لا يرون في الإسلام إلا تراكم للسلبيات بدءًا من النبوة ووصولاً للحضارة يؤكد على أن بيرك لم يكن فقط صديقا للعرب بل كان واحدًا من عمالقة الحوار الحضاري والديني قبل أن يشغل هنتجتون وفوكاياما ومن لف لفهم العالم في حوار الجهالات.

وفي الحديث عن بيرك وقنطرته يأتي الكلام عن الجدل المثار حول ترجمته للقرآن الكريم، لكن التسلسل المنطقي لبناء الجسر عند بيرك يقتضي منا التوقف أمام علاقته باللغة العربية وانفتاحه عليها وعن هذا الشأن يقول في كتابه "ويبقى هناك مستقبل" لا شك بأنني أحب اللغة العربية لدرجة أنني حين انطقها استمتع بنوع خاص من اللذة الحسية والروحية معا.. والدليل على ذلك أنني لم اتعلمها فقط بل واعلمها وكتبت واجتهدت فيها.. واقصد بالتعليم هنا المتخصص الجامعي الاكاديمي وقد كانت دراساتي متخصصة بالألسنة الكلاسيكية اللاتينية واليونانية وليس بالعربية - الا أنني أوقفت كل دراستي على العربية وحظيت بما حظيت من خلال اهتمامي وتماسي مع العرب واطلاعي على النصوص العربية القديمة، التي حققت منها عددًا لا باس به إلى جانب مطالعاتي للتراث الكلاسيكي والمعاصر على حد سواء.. فمنذ عشر سنوات

أحسست بنوع خاص من الجمود أو عدم التقدم في مضمار اللغة مما أقلقني وظننت بأن علاقاتي مع العرب تكفيني فوجدت أن ذلك لا يرضي مطالبي الشخصية ولا يشفي غليلي.. فذهبت بسرعة وبتركيز الاهتمام على المصدرين الاساسيين للعربية: القرآن والمعلقات العشر، وبالرغم من أن قيمتهما القدسية مختلفة ولا يتساويان إلا انهما يشكلان عمود العربية الاساسي، ويمثلان مصدر الكلام العربي، ومنذ ذلك الحين حتى اليوم عكفت على دراسة هذين المصدرين الكبيرين، ولم تنقض سنة واحدة حتى احس أصدقائي برقي ملموس في نطقي وتراكيبي اللغوية وهذا هو مختبر الحياة.

ومن هنا كانت البداية لترجمته الشهيرة للقرآن الكريم، ويحدثنا الدكتور سعيد اللاوندي في كتابه المتميز "كذب المثقفون ولو صدقوا" أن أحدًا لم يخدم قضايا العرب والإسلام في اوربا مثلما خدمها المستشرق الفرنسي الكبير جاك بيرك، حتى أن مقدمته لترجمة القرآن الكريم والتي جاءت في نحو ٨٢ صفحة لم يشأ الرجل أن يجعلها في مكانها الطبيعي في أول الترجمة وإنما فضل أن يضعها في النهاية كدليل وعندما سئل عن سبب ذلك أجاب أن كلام الله لا يجب أن يكون مسبوقًا بكلام البشر، ورغم ذلك فإن أحدًا لم يتعرض لجحود ونكران مثلما تعرض له جاك بيرك من جانب العرب والمسلمين وبخاصة ترجمته للقرآن الكريم، حتى أنه أوصى ذويه حال موته أن يضعوا داخل قبره نسختين من القرآن الكريم ونسخة من ترجمته حتى يعرضهما على الخالق تبارك اسمه في الحياة الأخرى وكأن لسان الرجل يقول إذا لم أحصل على اعتراف من الأرضيين فأنني متعلق بحسن الجزاء من قبل السمائيين ويضيف د. اللاوندي إن أشد ما كان يؤلم جاك بيرك هو أن يوصف بأنه عدو الإسلام لأنه وإن لم يكن المستشرق الوحيد الذي أمضى شبابه وكهولته وشيخوخته في دراسة حضارة العرب فهو المستشرق الفرنسي الوحيد الذي دافع عن قضايا العرب والإسلام ولقى في سبيل حبه للعرب وصداقته لهم عنتا شديدًا.

ويرى أن علاقته بالإسلام تصورها بحق كلمة "ضيف على الإسلام" ولذلك يود لو نظر إليه وإلى أعماله من خلال هذه العلاقة ويذكر أنه تعلم من أستاذه ماسنيون أن الإسلام هو محور العروبة، وأن العروبة بدورها هي محور الإسلام ولذلك توزعت أعماله لتدور في هذين المحورين ولم يقنع بيرك فقط بترجمته للقرآن الكريم لكنه كان يعد لمشروع جديد يهدف من وراءه إلى تعظيم مساحة اللقاء بين المسلم والمسيحي أو بين الشرق والغرب فيقول "بعد أن فرغت

من ترجمة معاني القرآن الكريم كرست كل وقتي للقراءة في علم الحديث لأنني أعتزم عمل دراسة - إذا طال العمر - حول الاحاديث النبوية الشريفة لأبرز ما تتضمنة من معان ومدلولات خصوصًا أنني أحب هذه الأحاديث. وأرى أنها تجمع إلى جانب الصبغة الدينية العظيمة التي توصف بأنها "إن هي الا وحي يوحى" الصبغة الإنسانية التي يجد فيها المسلم والمسيحي على السواء المعني الرفيعة التي تغذي الروح وتسمو بالعقل والوجدان.

ومع أن دوره الرئيسي كان "تجسير الشطآن" إن جاز التعبير فلقد وقف بيرك كذلك عند حالة العالم العربي الممزق ناظرا ربما بعين الأوروبي والغربي مشخصا هذه الحالة بقوله " يبدو لي أن الشعوب الافروآسيوية قد وصلت إلى ما أسميه بالموجة الثانية بعد الاستقلال، ومعروف أن الموجة الاولى وصلت إلى أبعد النتائج وأبعد الخسائر وأن الخسائر تنفع بالطبع لكن شرط أن تحلل ما ينبغي وهنا اقول: أنه يطلب من العالم العربي أن يحلل كل ما يعني به من خسائر منذ جيل لكي يستنتج منه الوسائل المجددة.

وفي موضع آخر يحاول بيرك فض الاشتباك بين المطالبين بالعودة إلى المنابع واستلهام التراث كليا وبين اولئك الذين يركزون على ضرورة العصرنة، وغيرهم من المطالبين بإعادة قرءاة التاريخ العربي برؤية جديدة فيعلن على مسئوليته كمؤرخ أن الرجوع إلى الماضي ليس ممكنا لا للفرد ولا للجماعة.. والتراث ليس هو لماضي أبدًا بل هو ما ينتج عن ذلك الماضي من كوامن مصيرية وقوي منتجة متجهة اتجاه السيلان الزمني ومواكبة العصر ويكمل كيف يتصور البعض أن المشروع الإنساني قادر على أن ياخذ نقيض الحياة فيما أن الحياة مصيرية ومستقبلية؟ فبذلك القدر بقدر ما تكون مصيرية ومستقبلية تظل أكثر وفاء لاصولها وينابيعها..

غير أنه لو كان هناك متسع من الوقت - يضيف بيرك - لكان بالإمكان أن نورد أدلة قوية بالمقارنة مع نواميس الحياة، كما يبينها البيولوجيون الآن ونواميس علم الاجتماع والتاريخ والمستقبل العربي.

ويمضي يقول نعم أنا متفاءل رغم فواجع القرن العشرين، ولدى الكثير من الآمال لكنها آمال مشروطة فلو قيست المدة المقبلة بالمدة السابقة فلا أرى إلا نهضة عربية شاملة، وأوضح مما كانت عليه سابقًا وأثقل وزنا في العالم لكن بشرط وجود عقل عربي أعقل.

ويستاءل ألا يقول القرآن "ولعلكم تعقلون يا أولي الالباب" إذن الشرط هو الأخذ بالتحليل بدلا من الارتجال، وعدم خلط المستويات في السلوك وأقصد بالخلط هنا الخلط بين مستوى الخيال ومستوى العمل ولكليهما فائدته بالطبع كما يشترط الا يختلطا وحلمي أيضًا أوسع من مصير العرب، أنه الحلم الذي يجتمع فيه مصير العرب مع مصير الشعوب اللاتينية.

عاش بيرك آمينا لحلمه بعد أن أدخل مصطلحات متعددة إلى الثقافة العربية وحمل الإسلام وكتابه الكريم إلى الحضارة الغربية أما الحلم ـ المشروع الثقافي فهو إقامة اندلس جديد أو مجموعة أندلسات جديدة حيثما التقت الحضارتان الأوروبية ـ المسيحية " "جوازا " بالإسلام طيلة سبعة قرون.

وقد رأى بيرك على الدوام أن "المتوسطية" نقطة اللقاء بين الشرق والغرب وربما يكون هذا هو السبب وراء إعجابه بطه حسين الذي أفرد له دراسة عميقة خاصة عن جرأته العلمانية وقد التقى كثيرًا مع العميد فيما أورده في كتابه "مستقبل الثقافة في مصر" والذي ذهب فيه طه حسين إلى حوض البحر المتوسط كمعين لا ينضب للحضارة والثقافة.

كتب بيرك أربعين كتابا جميعها عن العروبة والإسلام ماعدا كتابين.كان القاسم الأعظم في كتاباته والراية العالية لدعوته أن التعددية من أساسات العالم، ومن هنا جاءت قناعته بضرورة حوار الحضارات الأقرب جغرافيا إلى بعضها البعض فكان بيرك وكما يقال جَسرًا جسورًا مقداما في مضماره.

# هيلاريون كابوتشي

## (١٩٢٢: ....)

## أسد من حلب للدفاع عن القدس

ضميري ووجداني فرضا علي أن أهب لمساعدة هذا الشعب ولقاء مساعدتي ودفاعي عن حقوقه القي القبض علي وحكم علي باثني عشر سنة سجن قضيت منها أربع سنوات خلف القضبان.

ولد هيلاريون كابوتشي عام ١٩٢٢م في حلب بسوريا، واختار أن يسلك طريق رجال الدين فالتحق بالسلك الكهنوتي ليسير في دربه حتى أصبح مطرانا لكنيسة الروم الكاثوليك في القدس عام ١٩٦٥م.

والحديث عن أسد حلب يقودنا من جديد إلى التفكر والتبصر في الدور الملقى على عاتق المسيحيين العرب الذين يشكلون في كثير من المواقع والمواضع جسرا بين الشرق الذي اطلق عليه البعض الإسلامي والغرب المعروف كذلك بالمسيحي رغم خطأ تلك التوصيفات، لكنه يبقى في كل الأحوال لهؤلاء دورًا بارزًا ولاسيما أن شهادتهم لدى المجامع الغربية هي شهادة غير مجروحة وتعبر عن شراكة اصلية في وحدة الوطن، والمصير ودورهم يبطل مزاعم الجدران ويحطم أساطير الصراعات المتبادلة، وحتمية المواجهات الحضارية والدينية.

وفي هذا المقام يحضرني مثال حي على هذا الدور منذ زمن طويل ذلك أنه يوما دخل الشاعر العربي الكبير غياث بن غوث التغلبي الملقب بالاخطل وكان ثملا والصليب الخشبي يتدلى من عنقه على الخليفة عبد الملك بن مروان في مجلسه، كان الأخطل هو الصوت الصادق للدولة الاموية ولخلفائها المتعاقبين منذ عهد الخليفة مروان بن عبد الحكم.

وقد كان كذلك متطرفا ومتعصبا في انتمائه العربي وشديد التعسف في إعلان كرهه ومقته لكل من يناصب الامويين العداء وقد وجد عند الخليفة "زفر بن الحارث" اشد المعارضين للحكم الاموي وقد أراد الخليفة أن يبرم معه سلاما بعد عداوات طوال فما كان من الأخطل إلا أن تغير وجهه ولم يلق بالسلام على الخليفة بل نظر للعدو ثم إلى الخليفة قائلاً أليس هذا أي بن الحارث "من قال عن طبيعة العلاقة مع الدولة الاموية "وقد ينبت المرعى على دمن الثرى وتبقى حزازات الصدور كماهي" فكان أن أوغرت كلمات الأخطل صدر الخليفة وذكرته بالحقد الذي يكنه زفر بن الحارث للامويين فغضب وقام من مكانه وصفع زفر وطرده من مجلسه.

يحمل المشهد صورة للأخطل الشاعر العربي الذي يدين بالمسيحية والذي لم يمنعه معتقده الديني من أن يتصدى لكل ما ينال من كرامة العرب في أرضهم، فنذر حياته للدفاع عن الدولة الأموية.

وبنفس القياس يمكن التحدث عن المطران هيلاريون كابوتشي ودوره في الدفاع عن المدينة المقدسة القدس، وكيف قدر له أن ينقل إلى العالم الغربي صورة صادقة عن المعاناة التي تعيشها زهرة المدائن تحت الاحتلال الإسرائيلي.

مَثّل كابوتشي صوت الضمير الذي ذكر العالم المسيحي الغربي بأهمية القدس بالنسبة للعالم المسيحي حتى لا تسكت الأفواه أمام الاغتصاب الصهيوني اليومي.. لكن ماذا عن القدس بالنسبة للمسيحية والمسيحيين والإسلام؟

القدس هي مكان روحي أكثر أهمية من كونه جغرافي بالنسبة لأتباع المسيح شرقًا وغربًا وهي مدينة السلام، ومن العجب أن تفقد سلامها حاليًا، فالقدس مدينة عاش بها السيد المسيح وكرز فيها بالإيمان واضطهد وصلب وقبر وقام ومازال قبره فيها حتى الآن.

مدينة القدس هي المدينة التي تباركت بدم أول شهيد مسيحي وهو اسطفانوس أول الشمامسة.. وهي التي حل فيها الروح القدس وعمل عمله العميق في نشر الإيمان. القدس إذن هي المركز الذي تتحد فيه كل الآراء وكل القلوب.

فإذا تكلمنا عن القدس نجد أنفسنا قلبًا وروحًا وفكرًا واحدًا مقدسًا بالقدس، فهي المدينة التي بكى عليها المسيح وفيها ذكريات كثيرة عن معجزاته فيها بستان جثماني وجبل صهيون وجبل الزيتون وبركة سلوام وبيت حسدا، وهي أماكن عديدة يجلها المسيحيون ويقدسون ترابها وذكرياتها العميقة، وربما غابت هذه الحقائق عن ذاكرة العديد من المسيحيين الغربيين في ضوء المؤامرات اليهودية المتواصلة والادعاءات الكاذبة التي تلبس الذئب ثوب الحمل.

وقد جاء هيلاريون كابوتشي ليذكر الغرب بأن فلسطين أرض عربية مغتصبة وأن القدس هي المدينة المقدسة للمسيحيين والمسلمين، على السواء وإن محاولات إسرائيل فرض واقع جديد عليها هو من قبيل الادعاءات الكاذبة بإنها كانت وستظل يهودية.

وصل هيلاريون كابوتشي إلى القدس كمطران للروم الكاثوليك في العام ١٩٦٥م أي قبل نحو عامين من حرب عام ١٩٦٧م وعلى الطرقات كنت تراه شابا يافعا أسمر البشرة يميل إلى الصلع ذي لحية سوداء كالفحم طيب الحديث ذكي يقظ.

لم يخف كابوتشي تأييده للقضية الفلسطينية وكان يجهر بالحديث ضد الاحتلال الإسرائيلي وكثيرا ما بادر إلى تنظيم المسيرات المنددة بالعدوان الإسرائيلي، وبعد موت الرئيس المصري جمال عبد الناصر وقع على عرائض تدين إسرائيل كان يوزع الأموال على أسر الشهداء والفدائيين الفلسطينيين، وهو الذي اقترح فكرة تشكيل لجنة سرية تقوم بتنظيم المعارضة المكثفة للاحتلال وأيد فكرة منع العمال العرب من المناطق المحتلة من العمل في إسرائيل قائلاً "من الأفضل للعربي أن يأكل الخبز فقط من قيامه بخدمة الإسرائيليين، والأكثر من ذلك أنه كان يساعد المنظمات الفلسطينية من خلال إدخال أسلحة وذخائر إلى القدس ورام الله وغيرها من المدن الفلسطينية المحتلة، ليمد بها رجال المقاومة وفي آخر أغسطس من عام ١٩٧٤م قبضت عليه السلطات الإسرائيلية وقدمته للمحاكمة بتهمة تهريب السلاح والمواد التخريبية وبتهمة التعاون مع منظمات معادية وحكم عليه بالحبس لمدة اثنى عشر عامًا.

لكن رئيس الحكومة الإسرائيلية مناحم بيجن الذي سعى إلى تحسين العلاقات مع الفاتيكان قبل الإفراج عنه في عام ١٩٧٨م على أن يغادر فلسطين دون عودة ثانية وأن يلتزم الصمت حيال القضية الفلسطينية.

لكن الحاصل أن الرجل رغم أنه غادر القدس الا أنها ظلت حاضرة في قلبه حتى أن متحدثًا باسم الحكومة الإسرائيلية صرح ذات يوم بالقول 'أعتقد أن قرار الإفراج عن كابوتشي كان قرارًا خاطئًا فالحقيقة أن المطران الذي قوبل بالإعجاب من قبل الفلسطينيين عكف في منفاه على نشر الدعاية لصالح المنظمات الإرهابية ".

هذا هو إذن دور الجسر الذي قام به كابوتشي في العالم أجمع مستغلاً وضعية ونفوذ الكرسي الرسولي أي دولة الفاتيكان لنشر الحقيقة واضحة ساطعة حتى يعمى نورها عيون المحتل ويفضح أساليبه وطرقه الخبيثة.

غادر هيلاريون كابوتشي القدس لكنها لم تغادر قلبه فهو حتى الساعة يعتبر نفسه مطرانا للقدس وعلى حد تعبيره فالمطران ليس سيدا، المطران هو

خادم، هو أب، والوالد عندما يرى ابنه مهددًا يهب لنجدته أيًا كان الثمن، مضحيا بالغالي، والنفيس لمساعدته، والمطران هو أيضًا الراعي والراعي عندما يرى الذئب مقبلاً يضحي بحياته دفاعًا عن قطيعه.

لكن من هو القطيع في عيون الراعي هيلاريون كابوتشي؟ يصرح ذات يوم بالقول " قطيعي أنا منذ سنة ١٩٦٥م يوم دخولي إلى القدس هو الشعب الفلسطيني، شعب رأيته بأم العين تحت الاحتلال شعب مغلوب على أمره حقوقه مهضومة كرامته مداسة فكيف تريدوني أن أقف مكتوف الأيدي وأنا أعتبر نفسي أب وراعي لهذا الشعب؟

ضميري ووجداني فرضا على أن أهب لمساعدة هذا الشعب، ولقاء مساعدتي ودفاعي عن حقوقه القي القبض على وحكم على باثني عشر سنة سجن قضيت منها ٤ سنوات خرجت بعدها بناء على تدخل الفاتيكان في شخص البابا بولس السادس رحمه الله، تدخل البابا لأنني آنذاك كنت مضربا عن الطعام، وقد مضى على إضرابي هذا ٣٧ يوم نزلت خلاله ٣٥ كيلو وبالتالي كانت حياتي في خطر فتدخل البابا لإنقاذ حياتي وبعد أخذ ورد طويلين بين الفاتيكان وإسرائيل قبلت إسرائيل بإطلاق سراحي، بشرط أن اخرج دون أن أعود وكان ذلك في ٢٠- ٢- ١٩٧٨م ولم أزل حتى هذه الساعة انتظر عودتي إلى وطني إلى قدسي وشعبي انتظر نهاية غربتي.

وإذا كان المثل العربي يقول أن "الغربة كربة والهم فيها حتى الركبة" فإن المطران كابوتشي يرى الهم فيها حتى الرقبة.

وفي مجالس كابوتشي ولقاءاته بوسائل الإعلام الغربية والعربية يثير عواطف وأشجان الجموع بقوله أنه ميت موت معنوي إذ يقول " ما الموت إلا فراق ما هو عزيز، عائلة، أولاد، أصدقاء، أملاك، مال، إلى آخره ويتساءل وهل أعز عند الأسقف من شعبه ومن أرضه؟ هذا الفراق القسري المفروض علي هو الموت المعنوي يموت الإنسان مرة فقط جسديا ويموت ١٠٠ مرة في النهار معنويا.

والمؤكد أن ما سبق لم يكن مجرد حديث مرسل ذلك لان المطران الذي أبعد قسرًا عن شعبه وأرضه قد استغل ذكرى مرور مائة وخمسين عامًا على بناء كنيسة بطريركية الروم الكاثوليك المعروفة بكنيسة سيدة البشارة في القدس الشريف ليذكر العالم بحال تلك الأرض المقدسة وليعيد بناء جسر هدمه الاحتلال جسر الحقائق الذي حاولت أن تحل محله جدران الأكاذيب لكن

الأسد الذي من حلب كان لها بالمرصاد، فعنده أن إنسانية الإنسان تتجلى بأسمى معانيها في موقفين لا ثالث لهما أولاً: مناصرة بحزم وبدون هوادة المظلومين والمسحوقين والمستضعفين والمضطهدين.

ثانيا: التصدي للظالمين الطغاة أيًا كانوا ومهما بهظ الثمن وأي نهج آخر أو سلوك مغاير هو تهرب من المسئولية وغسل للأيدي بأسلوب بيلاطس.

ويتساءل الأسقف كابوتشي لماذا وجب على أن أجند نفسي لنجدة ومساعدة هذا الشعب مدافعًا عن قضيته المأساوية العربية الفلسطينية؟ ويجيب قائلاً:

لأنني أولاً عربي أمي ولدتني عربيًا بلاد العرب أوطاني لذا في أعماقي اشعر بأني مواطن ابن وخادم في كل بلد عربي. عندما أسأل عن أصلي وفصلي عن حسبي ونسبي أجيب بافتخار أنا عربي، نحن العرب نؤلف أسرة واحدة لذا نحن أعضاء في الجسم الواحد وبالتالي عذاب عضو واحد هو تلقائيًا مبعث ألم لكل الأطراف أي عجب إذا بمشاطرتي الفلسطيني العربي عذابه؟

ثانيا لانني مسيحي والعلامة المميزة لي هي المحبة لأي إنسان، وكل إنسان وبالأخص المعذب أيًا كان دينه، مذهبه، قوميته، لغته، هو شخص تعيس من لا يفقه معنى الحياة وسعادتها ولذتها في العطاء الذي فيه وليس في الأخذ كل الغبطة والهناء.

ويضيف قائلاً: لذلك إبان اضطهاد النازيين لليهود قمنا بمظاهرات احتجاج وكتبنا عرائض تنديد لان اليهودية دين سماوي نحترمه واليهودي المخلوق على صورة الله هو أخ لنا كما أن الكثيرين من اليهود عاشوا في عالمنا العربي كمواطنين لهم كل الحقوق وما نحارب هو الصهيونية التي بنت نفسها ولم تزل على أنقاضنا، حالمة بقيام إسرائيل الكبرى.

إن مدى فاعليتي مسيحيًا هو بمقدار تفاعلي إنسانيًا وعربيًا، عندما يرى الناس أعمالي الصالحة آنذاك فقط يمجدون ابي الذي في السموات.

ثالثا إني رجل دين، تجسيد المبادئ والقيم والأخلاق من واجباتي، من مقوماتي "أنتم نور العالم، أنتم ملح الأرض" هل يعقل إذا أن أتغاضى عن نجدة المعذبين متجاهلاً ماضيهم؟ ما كنت إذن رجلاً والدين مني براء.

هكذا ذكّر المطران كابوتشي العالم الغربي بحقائق كثيرًا ما غابت عن ناظريه بل وطالب الحكام والقيادات الدينية والدنيوية بمطالب أوجزها في تنفيذ

القوانين الدولية التي تحرم أولا احتلال أراض الغير بالقوة وتحتم تحريرها ثانيا وتأمر بعدم المساس بمعالمها. ثالثا وهذا ما تنص عليه قرارات هيئة الأمم ومجلس الأمن من جلاء إسرائيل إذا عن كافة أراضينا العربية المحتلة في فلسطين في سورية كي نضع حدًا لعذابنا، ومعاناتنا والمأرب الوحيد عند المطران كابوتشي للعرب والفلسطينيين هو أن نعيش لكن أي عيش؟

يضيف "العيش ليس أكلاً وشربًا الكرامة هي الحياة، والوطن عنوانها الفلسطينيون ليسوا مجرد لاجئين هم شعب من ستة ملايين نسمة من حقهم إذا أسوة بشعوب العالم كلها تقرير مصيرهم وإقامة دولتهم المستقلة على أراضيهم المغتصبة نحن لا نستجدي. هذا حقنا.

ويكمل المطران كابوتشي بناء الجسر من خلال إطلاع الرأي العام الغربي من مقره وعبر كتاباته على ما آلت إليه الأحوال في فلسطين عامة، والقدس خاصة، بعد الاحتلال. راسما صور مؤلمة تمجها النفوس الأبية من أي جنس ولون ودين فيصف مشهد القدس في التاسع من يونيو حزيران قائلاً "فيما كنا سماحة الشيخ سعد الدين العلمي مفتي القدس رحمه الله، ونحن نتجول في شوارع القدس الخالية بسبب منع التجول كي نتفقد أحوال أبنائنا لنجدة الجرحى ولتأمين الطعام للجياع ولتعزية الحزانى والثكالى والأرامل بلغ مسامعنا عبر المذياع صوت حاخام الجيش الإسرائيلي " شلومو غورين " يصرخ مخاطبًا الجماهير الإسرائيلية الغفيرة المحتشدة بالقرب من حائط المبكى "ألا افرحوا وتهللوا حلم الأجيال قد تحقق لقد عدنا إلى ديارنا لقد حررنا قدسنا عاصمتنا الأزلية الأبدية هي خاصتنا"، يقول كابوتشي شعرت بالألم والمرارة بعد أن غابت عن القدس مسحتها القدسية ورأيت بواكير اضمحلالها إلى أن تحولت إلى مجرد بلد سياحي هودت على أن التحدي والتعدي بلغا ذروتهما بإعلانهم القدس عاصمة موحدة أبدية لدولة إسرائيل.

أما ما يدمي ويبكي القلوب والعيون فهو مشهد الشهداء المبعثرة جثثهم على الطرقات إذ يقول عنهم "كانوا قد أنتنوا، لان المحتل أصر على تركهم أياما تحت الشمس المحرقة فعملنا سماحة الشيخ سعد الدين العلمي وأنا مع شبان متطوعين على لملمتهم ومن ثم دفناهم في حفرة واحدة سماحته تلي صلاته راحة لنفسهم وأنا بعده كذلك دون التمييز بين مسيحي ومسلم لأن دينهم بعد استشهادهم هو شهادتهم.

ومما لاشك فيه أن الشهادة العلنية التي شهدها المطران كابوتشي كانت ضمن أسبابًا أخرى وراء الإصرار الفاتيكاني إزاء إحقاق حقوق الشعب الفلسطيني في عيون الأوروبيين والأمريكيين والعالم كله فالفاتيكان يصر على عودة الفلسطينيين إلى أراضيهم لأن هذا حق مشروع لهم اقره القرار ١٩٥ الصادر عن هيئة الأمم المتحدة كما آن تلك الشهادة تنبه إلى ظاهرة خطيرة لغاية وهي محاولة إفراغ القدس من مسيحييها بل ومن مسلميها على السواء فالمسيحية اليوم في فلسطين في خطر وعدد المسيحيين في كل فلسطين اليوم لا يتعدى ١٥٠ ألف.

والتساؤل الذي طرحه كابوتشي لماذا هاجروا ورحلوا عن مهد المسيح؟ ويجيب لأن الحياة الكريمة تحت نيران الاحتلال أمر شاق، وعسير ولا تقبله غير أنفس رجال ذو بأس وعزم شديدين، فالذل والهوان تحت الاحتلال من جهة وبحث الأهل عن مستقبل كريم لأولادهم يدفعهم للذهاب بعيدًا، بينما يبقى مسيحيو العالم مجرد متفرجين على ما يجري.

وفي مقام آخر ناشد المطران كابوتشي العالم الحر وقف إجراءات تهويد القدس مذكرًا بالإجراءات التي اتخذتها قوات الاحتلال بعد عشرين يومًا من السابع من يونيو عندما اتخذ الكنيست القرار ٢٠٦٤ القاضي بضم القدس وتوحيدها واتبعه رويدًا رويدًا بإجراءات متتالية غيرت مع الأيام معالمها كليًا وهودتها ومنها:

١. عزل القدس عن الضفة الغربية سياسيا إذ منحونا هوية قدسيه بعد إحصاء دقيق.
٢. حل مجلس أمانة القدس العربية وإلحاق موظفيها بالبلدية الإسرائيلية.
٣. نقل بعض المؤسسات الرسمية الحكومية الإسرائيلية إلى القدس بهدف إلغاء قطاع الخدمات العربية لاستيعابها.
٤. المباشرة بتطبيق المناهج الإسرائيلية في الثقافة والتعليم.
٥. تصفية شركة كهرباء القدس أهم مرفق اقتصادي عربي.

ولا يقتصر الأمر على هذا النحو لكنه ينبه كافة المعنيين وخاصة في المنظمات الدولية والمسئولين عن التراث الإنساني إلى المحاولات الإسرائيلية

للقضاء على التراثين الإسلامي والمسيحي ذلك لأنها ماضية في غيها تجاههما على قدم وساق ومن هذه المحاولات:

١. الحفريات الجارية حول وتحت المسجد الأقصى لتصديعه وتخريبه.
٢. محاولة أولى وثانية لإحراق أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين.
٣. مصادرة أديرة واعتداء على كنيسة القيامة وسرقة تاج السيدة العذراء إضافة إلى مصادرة عقارات إسلامية ومتحف الآثار الفلسطينية.
٤. تدمير أحياء عربية بكاملها حي الشرف، حي الباشورة، حي المغاربة، رأيتهم بأم العين يهدمون مئات المنازل ويهجرون آلاف السكان لاحداث الباحة الكبيرة أمام حائط المبكى لاستيعاب اكبر عدد من المصلين.

وينهي بالقول "إن إسرائيل فيما تخرب بيوتنا وتستولي عليها تقوم ببناء آلاف الوحدات السكنية تنفيذا لمخططها "القدس الكبرى" ولفصل القدس نهائيًا عن الضفة الغربية.

ولكي يبطل الرجل أكاذيب اليهود المتطرفين الذين يصورون العرب على أنهم كارهين للسلام سفاكي دماء فإنه عمد ويعمد على الدوام على إظهار موقف العرب والمسلمين عامة والفلسطينيين خاصة من قضية السلام بما يترك عظيم الأثر في نفوس مستمعيه من رجال دين ودنيا في العالم والعواصم الغربية فيقول " نحن طلاب سلام.. والسلام هو استراتيجيتنا نحن نعشق السلام لأننا نرى فيه طاقة وكنز، وعندما نتكلم عن السلام فنحن صادقين لأنه في السلام لوحده الخلاص وطالما لا ننعم بالسلام نبقى معذبون مشردون تائهون بدون كرامة إذن السلام في مصلحتنا.

وفي ذات الوقت يثير في قلوب وعقول الآخرين تساؤل جدي حول السلام عند إسرائيل وهل هو في مصلحتها حقاً؟ ويرد "إسرائيل تتكلم عن السلام وتعمل للحرب ولعل تصريحات كبير الحاخامين في السنوات الماضية "هودي عودي" يكشف عن نواياهم عندما وصف العرب بالأفاعي قائلاً أن الرب ندم لأنه خلق العرب من ذرية إبراهيم.

هم إذن لا يريدون السلام فهو في نظرهم العدو الأكبر لانه يعني الحدود الواضحة وإسرائيل لا تزال تحلم بإسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات هي لا تريد السلام لأنه لا يمكنها بعد ذلك أن تدعي أنها محاطة ببلاد عربية تريد أن تنقض عليها.

وإذا كانت قضية القدس قد استوعبت سني حياة المناضل العربي الكبير المطران هيلاريون كابوتشي فإن مواقفه في واقع الأمر قد تعددت القدس وفلسطين المحتلة ليشارك في عدد من المشاهد التي عاشها العالم العربي جريحا كسيرا كما في العراق التي زارها على رأس وفد من رجال الدين المسيحي والمثقفين الإيطاليين وغيرهم من الجنسيات الأوروبية في زيارة قال عنها أنها تستهدف التعبير عن التضامن مع الشعب العراقي ضد الحصار الدولي الذي فرض عليه والذي أدى إلى وفاة الآلاف من شعبه جوعًا ومرضًا وقد جاءت رحله كابوتشي لتعمق عند الكثير من الدول الأوروبية رفضًا واضحًا للهيمنة الأمريكية هناك، والتي كانت أيضًا ولا تزال سبب رئيسي في ما تقوده به إسرائيل في الأرض الفلسطينية المحتلة.

"إلهي اكلا بعينك الساهرة حكامنا العرب أجمعين ليعملوا لما فيه فلاح أمتنا الكريمة ووحدتها كي نحقق ما نحلم به وإليه نصبو، جمع شملنا كراما مسيحيين ومسلمين في رحاب الجامع الأقصى وكنيسة القيامة فيما المآذن تصرخ الله أكبر متناغمة مع أجراس الكنائس وهي تقرع مهللة لعودتنا منتصرين إلى ديارنا إلى مقدساتنا إلى قدسنا العربية المحررة عاصمة دولة فلسطين.

بهذه الدعوة التي هي أقرب إلى الدعاء يختتم المطران كابوتشي رؤيته ويعبر عن منية قلبه وشهوة نفسه.

ونقول أليس في هذه الدعوة جسرًا صادقًا رائقًا من شوائب الكراهية وخزعبلات التصادم بين الأديان والحضارات؟

المؤكد آن ذلك كذلك وأن الأسد القادم من حلب قد أبطل بشهادته دعوى هنتجتون وافشل مؤامرات برنارد لويس ومن شابه.

# نعوم تشومسكي

## (١٩٢٨: ....)

## قوة الحقيقة في وجه حقيقة القوة

في هذه اللحظة المروعة لن يكون بإمكاننا القيام بأي شيء لإيقاف هذا الغزو ( غزو أمريكا للعراق في ٢٠٠٣م) ولكن هذا لا يعني نهاية مهمة الناس الذين يحملون عبء العدالة والحرية وحقوق الإنسان وبعيداً عن هذا فان المهمة ستكون ملحة أكثر من أي وقت مضى مهما كانت نتيجة هذا الهجوم التي لا يعلم أحد شيء بشأنها لا البنتاجون ولا أل CIA ولا أي جهة أخرى .

يطلقون عليه هذا الوصف نظرًا لأنه تعامل مع حقائق الأمور بعين عادلة بعيدة كل البعد عن العنصرية البغيضة، ولم تكن يهوديته يومًا سدًا أو حدًا أمام طموحاته، لتجسير الفجوات وإماطة اللثام عن الحقائق وفضح الأكاذيب وتعرية الخدع والمؤامرات التي لا ينفك قوم أن يلصقوها بكل من وما هو عربي أو مسلم.

ويمثل وعن صدق "لاسامية الأنا" وبالرغم من شيوع تهمة يهودي يكره نفسه بين اليهود وبالرغم أيضًا من زيادة التجرؤ على توجيه هذه التهمة منذ قيام عصبة مكافحة التشهير اليهودية فإن هذا المصطلح لم يصل إلى الشهرة العالمية الا عندما تحول إلى لقب يهودي لنعوم تشو مسكي.

ولد نعوم إفرام تشومسكي في فيلادلفيا بالولايات المتحدة الأمريكية لأب عالم في اللغة العبرية وأم مدرسة لذات اللغة وهناك عاش حتى أنهى دراسته الجامعية في بنسلفانيا ليلتحق من بعدها بجامعة هارفارد العريقة، لمدة عامين في منحة بحثية سافر تشومسكي في أوائل الخمسينات إلى إسرائيل ليعيش لفترة في أحد الكيوبوتزات حيث اعتقد في الطبيعة الاشتراكية والإنسانية لحركة الكبيوتز بيد أن الغشاوة انقشعت بسرعة عن عينيه فكان أن ترك إسرائيل وعاد إلى الولايات المتحدة حيث عمل عام ١٩٥٥م في جامعة هارفارد التي تركها لاحقا لينتقل إلى العمل في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا والذي لا يزل يعمل به حتى الآن.

والتساؤل الذي نحن بصدده هو أين موقع تشومسكي من الجسور مع الاخر؟ الاجابة هي أن للرجل مكانة معروفة لا ينكرها غير غافل إذ أنه من أشد المدافعين عن القضايا العربية في الولايات المتحدة، ومن أشد نقاد السياسة الأمريكية في الشرق الاوسط، ويرى أن سياسات واشنطن ضالة ومضللة وأنها خادمة عند جماعات الضغط المختلفة " كاللوبي اليهودي وغيره " ويشير كثيرًا إلى أن سياسات الكيل بمكيالين التي تمارسها على الدوام قد تؤدي بالعالم إلى الدمار الكوني ولاسيما أن الشرق الاوسط من المناطق شديدة الالتهاب في العالم.

ولتشومسكي عدة كتب تنتقد السياسة الأمريكية في الشرق الاوسط منها "السلام في الشرق الاوسط" و"مثلث المقادير" و"قراصنة وقياصرة"، و"ثقافة الإرهاب" وأوهام ضرورية، و"الديمقراطية المعوقة" وغيرها.

والمؤكد أن نشأة تشومسكي الأولى كان لها دور مهم وحاسم في تشكيل رؤيته للعالم من حوله منذ نعومة أظفاره حتى إدراكه للقب عالم في اللسانيات فاسرة والده هي أسرة يهودية مهاجرة من اوكرانيا حطت رحالها في بالتيمور الأمريكية وقد كانت أسرة يهودية أرثوذكسية إلى أبعد حد، وتوصف بأنها من الاسر "الالترا أرثوذكسي" وهم طائفة يهودية كانت تعادي الصهيونية بشدة وترفض فكرة العودة إلى الوطن في إسرائيل ولاتزال طالما أن المسيح المخلص لم يظهر بعد وتعد جماعة "ناطوري كاراتا" الموجودة حاليا في الولايات المتحدة وبعض دول العالم بقايا تلك الطائفة التي يقول تشومسكي أنها ازدادت في التعمق الثقافي اليهودي الذي ينتمون إليه في المهجر رغبة في تقوية احساسهم بالهوية في مناخ غريب.

ومن هنا يفهم القارئ أية منهجية فكرية اتبعها تشومسكي نأت به كثيرًا عن أسطورة "الشعب المختار" الذي من دونه شعوب العالم كلهم "جوييم" أغيار لا يتساوون في الدم ولا في القيمة وأنهم خلقوا ليخدموا العالم اليهودي لا غير ومن هذا المنطلق كذلك نفهم لماذا يرى تشومسكي أن إسرائيل بسياساتها العنصرية الراهنة ماضية إلى زوال ويدعو إلى تحويلها إلى دولة ثنائية القومية ضمانا لاستمراريتها وأنه لا حل أمامها سوى المساواة بين كافة مواطنيها والساكنين فيها ومنذ بداياتها الأولى كما يروي "روبرت بارسكي" إذ يقول كان تشومسكي متمردا، فقد شارك في البداية في إعداد الشبان اليهود وإرسالهم إلى فلسطين عبر مشاركته في منظمة "هاشوميرهاتزائير" التي لم ينضم اليها بسبب تمرده، فقد كانت تحوي ماركسيين من التيار الستاليني وآخرين من التيار التروتسكي وكان هو متمردًا على الاثنين معًا بالرغم من أنه لم يكن يتجاوز العشرين من عمره ثم بدأ خلافه مع الصهيونية بسبب دعوته للدولة ثنائية القومية ورفضه لفكرة الدولة اليهودية ـ الدينية.

أما على صعيد الحياة الأمريكية فقد عرف كعلامة بارزة من علامات معارضة التوجه الرسمي الأمريكي حيث يرى أن الإعلام الأمريكي يروج لأفكار الحكومات الأمريكية بما يناسب مصالحها في حين بدا هو وكانه يأخذ على عاتقه فضح أساليب الخداع الإعلامي ومحاولاته الالتفافية للتأثير على

الرأي العام مما يجعله كاتبا شديد الخطورة على كبار الكتاب والصحافيين الأمريكيين فهو يفضحهم ويحرجهم أمام الراي العام ويقلل من فعاليتهم وفعالية أساليبهم أمام السلطة.

ويكتمل ديكور التمرد عند تشومسكي بالإهمال الظاهر والبوهيمية الواضحة في مظهره الشخصي في الجامعة فهو يوحي وكأنه تلميذ كبير السن فإذا دخلت إلى مكتبه وجدته مهملا عديم الترتيب، ومضجر مع ستائر خضراء ممزقة.

ويمكن تلخيص تمرده على الصعيد اليهودي بأنه معاد للصهيونية وعلى الصعيد الأمريكي بأنه ناقد سليط اللسان لليبرالية، وفي الحديث عن تشومسكي يتطرق الباحث إلى الكثير من المشاهد التي كان فيها صوتًا عادلاً تجاه القضايا العربية، وقد جسر من خلال هذا الصوت مآسي عربية كثيرة نقلها بأمانة واخلاص إلى الضمير العالمي، وهنا نتوقف مع مشهدين الاول عند المجازر الإسرائيلية في صبرا وشاتيلا والثاني غداة غزو العراق في مارس من عام ٢٠٠٣م.

كتب تشومسكي في عام ١٩٨٢م ليعود بالقارئ الأمريكي إلى ما قبل أيلول من ذات العام باحثًا عن مسئولية الولايات المتحدة الأمريكية المباشرة عن مجازر صبرا وشاتيلا فيكشف لمن كان يزال مراهنا على حياد الولايات المتحدة أن الادارة الأمريكية هي التي اعطت الاجتياح الإسرائيلي للبنان الضوء الاخضر وهي التي بررت دخول القوات الإسرائيلية إلى بيروت الغربية بأنه "محدد وقائي" بحسب المتحدث باسم البيت الابيض مع أن هذا الدخول خرق فاضح لاتفاقية فيليب حبيب وللتعهدات الأمريكية للبنانيين والفلسطينيين بل إن الولايات المتحدة غدرت بالحكومتين حين أعطت الطرفين ضمانات بسلامة الفلسطينين بعد مغادرة مقاتلي منظمة التحرير بيروت.

وكان فيليب حبيب قد كتب بالحرف الواحد لرئيس الوزراء اللبناني شفيق الوزان قائلاً "إن الحكومة الأمريكية ستبذل قصارى جهدها لكي تضمن أن تلك الضمانات الإسرائيلية سيتقيد بها بشكل دقيق وجاد.

وتقول الاتفاقية أيضًا أن الولايات المتحدة تقدم ضماناتها على أساس التأكيدات التي تلقتها من حكومة إسرائيل ومن قادة جماعات لبنانية محددة لها اتصال بها.

ويضيف: لقد انسحبت القوات الامنية الأمريكية من محيط المخيمين قبل أسبوعين من انتهاء فترة تفويضها الاصلية أي أنها اشرفت على مغادرة مقاتلي منظمة التحرير لكنها انسحبت بعد ذلك قبل أن توفر الحماية للسكان المدنيين، فأجبرت القوات الإيطالية والفرنسية بدورها على الانسحاب فوقعت المجزرة. ويذهب تشومسكي إلى أبعد من ذلك فهو يقول مع الكسندر كوكبورن أن القتلة اللبنانيين لم يكونوا مدعومين من إسرائيل فحسب، بل كانوا أيضًا معروفين معرفة تامة من قبل المخابرات الأمريكية والإسرائيلية وكانوا مجازين من الولايات المتحدة الأمريكية بسبب ازدراء هذه الأخيرة لضماناتها.

كما يذهب تشومسكي إلى أن إسرائيل لا تلتزم ببيانات أمريكا العلنية حتى لو شجبت إسرائيل، مادامت أمريكا تؤكد لحليفتها الاستراتيجية في مجالسهما الخاصة PRIVATELY تأييدها لمواصلة إسرائيل عملها كيفما شاءت ومادامت تدعم كل الخطوات الإسرائيلية حتى لو لم تحظ هذه الخطوات بدعم دولي.

ولا يكتفي تشومسكي بأن يقدم مثالا صارخا على الالتزام بقضايا العدل والحرية لكنه أيضًا يفضح مؤامرات السرية التي عانى من جراءها العرب والمسلمون كثيرا، والتي تخلقت في رحم العلاقات الأمريكية الإسرائيلية فينقل عن ميرون بنفيتسي وهو النائب لسابق لرئيس بلدية القدس تساؤلاته ومنها:

- ماهو جيشنا إن لم يكن نتاج المساعدات الأمريكية؟

- ألم يعلن الرئيس ريجان أن المستوطنات اليهودية في الضفة الغربية ليست مخالفة للقانون NOT ILLEGAL؟

- ألم يجز الكسندر هيج المرحلة الاولى من اجتياح إسرائيل للبنان؟

ويصل إلى قناعة مفادها أن كل ما حدث في إسرائيل حتى الآن قد ختم بموافقة أمريكية أو على الأقل احتملته الحكومات الأمريكية وانه إذا كان المارد قد خرج من القمقم فإن واشنطن هي التي ساعدت على الإطلاق ويتساءل إذا كانت الولايات المتحدة قد عجزت عن أن تضمن حياة أبرياء عزل في مخيمات مدمرة، فهل ستنجح اليوم في أن تضمن عملية سلام عادلة في الشرق الاوسط؟ هل ستكون راعية محايدة بين العرب وإسرائيل وهي التي أعطت

الضوء الاخضر لإسرائيل لغزو لبنان، ورفضت قرار هيئة الامم المتحدة باستنكار المذبحة وكانت وحدها في رفضها هذا؟.

والمشهد الثاني في استعراضنا لنعوم تشومسكي يحملنا إلى بلاد الرشيد في مارس من عام ٢٠٠٣م حيث بح صوت الرجل وهو يدوي بأعلى قدر للتغطية على ضجيج الآلة العسكرية الأمريكية الجهنمية التي ذهبت لتدمر، لا لتعمر تحت حجج واهية وكاذبة في العراق قائلا:

"في هذه اللحظة المروعة لن يكون بإمكاننا القيام بأي شئ لإيقاف هذا الغزو ولكن هذا لا يعني نهاية مهمة الناس، الذين يحملون عبء العدالة والحرية وحقوق الإنسان وبعيدًا عن هذا فإن المهمة ستكون ملحة، أكثر من أي وقت مضى مهما كانت نتيجة هذا الهجوم، التي لايعلم أحد أي شئ بشأنها لا البنتاجون ولا السي آي ايه ولا أي جهة اخرى.

بهذه المقدمة يستهل تشومسكي مقالة الأشهر إبان الغزو الأمريكي للعر ق والذي جاء تحت عنوان "قلق عميق".

وقبل أن يتعرض العراق لرحلة "درب الألم" التي عاشها ولا يزال يكتب تشومسكي مضيفا "تتباين الاحتمالات بين تشائم من كوراث إنسانية مريعة والتي كانت منظمات الإعانة والإغاثة تحذر منها باستمرار، وبين أمل بنتائج اقل أثرًا والطف وقعًا ولكن حتى لو أن الأذى، لم يطل شعره على راس أي أحد فإن هذا لن يبرر جرم أولئك الذين يضعون الانفس البشرية البريئة في موضع بهذه الخطورة من أجل تحقيق مصالحهم الشخصية.

أما بالنسبة لنتائج الهجوم فإن وقتا طويلا سيمضي قبل أن يتمكن أحد من وضع حكم أولى، ويضيف أن المهمة المباشرة الاولى هي أن نعطي ما أمكننا من ثقل، لجعل نتائج هذه الحرب أقل مأساوية، وهذا يعني الاهتمام باحتياجات الضحايا ليس فقط المتعلقة بهذه الحرب مباشرة وإنما أيضًا المتعلقة بالعقوبات التي فرضتها حكومة واشنطن القاسية، والهدامة التي دمرت بنية المجتمع المدني وزادت من سطوة حاكمها.

والحقيقة أن تشومسكي لم يكن جسرًا بين العالم العربي والإسلامي والعوالم والعواصم الغربية فحسب بل أحسبه كذلك كان معبرًا بين الأوروبيين

والأمريكيين وبين الأمريكيين أنفسهم عندما دق ناقوس الخطر من جراء "الطموح الامبريالي الأمريكي" الذي كانت العراق وغزوها أولى مشاهده.

ويؤكد على أن النزعة والتطلع الإمبريالي الذي يبديه أصحاب السلطة في واشنطن اليوم، يسبب الرعب في كل أنحاء العالم كما يسببه أيضًا بين العامة داخل الولايات المتحدة وفي أي مكان آخر.

وبالطبع حسب رؤية تشومسكي تكون الأصداء أكثر خوفًا بكثير وخصوصًا بين الضحايا التقليديين ذلك لأنهم يعرفون الكثير من قصص التاريخ بالطريقة القاسية لمعرفة التاريخ أيضًا لقد سمعوا الكثير من الخطابات خلال عدة قرون بينما كانوا يضربون في ناد يدعى نادي الحضارة حتى أن هذا دعا رئيس دول عدم الانحياز والتي تشكل النسبة الاكبر من سكان العالم لوصف إدارة بوش بأنها أكثر عنفا من هتلر.

وإذا كانت الأحداث الدولية في الاعوام الأخيرة من الأمور التي يسهل متابعتها، فإن الاصعب هو التفكر فيها بشئ من الاهتمام والصدق، ذلك لأنه حتى قبل أن تُصَعِّد إدارة بوش الأزمة مع العراق فقد أعلم اختصاصيو العلاقات الدولية والاستخبارابية كل من أراد الاستماع بأن السياسات التي تتبعها واشنطن قد تقود إلى مزيد من الإرهاب ومزيد من إنتاج اسلحة الدمار الشامل.

والمؤكد في هذا المقام أن تشومسكي لا يكتفي فقط بتحديد الداء ويضرب عن وصف الدواء لكنه من موقعه وموضعه كمفكر ينشد الحرية والعدالة، يكتب وصفة للولايات المتحدة على نحو خاص، يمكن لواشنطن من خلالهما الاستجابة للعدالة الدولية والفرار من الثمن الباهظ الذي يحيق بها من جراء افعالها وتصريحاتها المخيفة.

وأولى مراحل العلاج عند تشومسكي هي محاولة التخفيف من هذه التهديدات عن طريق اظهار شئ من الاهتمام بالشكاوى الشرعية وبالموافقة على أن تكون الولايات المتحدة الأمريكية عضوًا متحضر من أعضاء المجتمع الدولي مع إظهار بعض الاحترام للنظام العالمي ومؤسساته.

ولكنه في الوقت ذاته ينبه إلى طريق آخر تسلكه الولايات المتحدة اليوم فعليا ولا يبدو أنها ستقلع عنه عما قريب وهو طريق معاكس للسابق ويقوم على أن الولايات المتحدة تتبنى بالفعل المزيد من وسائل التدمير المخيفة والمزيد من

وسائل الهيمنة من أجل تدمير أي تحد محسوس، وإن كان بعيدًا وسحقه مباشرة الأمر الذي سوف يخلق تحديات أعظم وأحدث وقد يؤدي إلى تعريض سكان الولايات المتحدة والعالم إلى مخاطر جدية وهذا ليس احتمالا إلى انقراض هذا الجنس نهائيًا فالعالم الذي تجنب حربًا نووية في الستينات يملك اليوم أسبابًا جديدة وجدية تجعل ما يحدث في واشنطن عاملاً محفزًا لإطلاق الجني النووي من قمقمه.

ويحمل تشومسكي على الدوام دعوة لمواطنية الأمريكيين لكي يتحملوا المسئولية الأخلاقية للتخفيف من المخاوف الدولية وفتح الطريق أمام المستقبل الإنساني الأكثر رحابة بقبول الآخر لا بنفيه بعيدًا.

وبحال من الأحوال لم يكن تشومسكي بعيدًا أيضًا عن توصيف الحالة التي اطلق عليها البعض كراهية المشرق الإسلامي للغرب المسيحي والتي تبلورت في تساؤل لماذا يكرهوننا في إطار بحثه عن الجدران العازلة التي تقف في طريق بناء الجسور بين الأمم والشعوب.

يجيب تشومسكي على التساؤل السابق بقوله: إنهم لا يكرهوننا نحن ولكن يكرهون سياسات حكومتنا وهذا أمر مختلف كل الاختلاف أنهم يكرهون سياساتنا التدميرية المتوحشة ويكرهون كذلك الطبعات التي تحمل مبادئ الابادة من خلال تكنولوجيا الموت التي جرت في افغانستان والعراق مثل القنابل ذات اليورانيوم المنضب ناهيك عن بقية المشروعات الاستعمارية التي تتزايد في زي ومبررات واهية مثل الديمقراطية وحقوق الإنسان، وحقوق الأقليات في حين أنها تهدف إلى استغلال ثروات الأمم والشعوب.

ويدلل تشومسكي على صدقية حديثه بإعطاء مثال للحالة العراقية فيقول: بالتأكيد أن مخططي السياسة الأمريكية ينون إقامة دولة تابعة في العراق وذات مظاهر ديمقراطية، إذا أمكن ذلك على الاقل لاعتبارات دعائية ولكن إذا كان العراق يبغي استقلالا زائدًا عن اللزوم، فلن يكون أكثر من واجهة عربية على حد تعبير البريطانيين عندما كانوا مهيمنين على المنطقة وسلطتهم تقبع خلف هذه الواجهة بعيدًا عن الواجهة.

والمؤكد أن هذا هو الاسلوب الذي استخدمته الولايات على امتداد قرن كامل لتسيير شؤون مناطق سيطرتها في الغرب ذاته ولا يوجد أي مؤشر على حصول معجزة تغيير من أي نوع.

ويكمل بقوله لقد فرضت قوات الاحتلال الأمريكية على العراق برنامجا اقتصاديًا لا يقبل به أبدًا بلد ذي سيادة أنه يضمن عمليًا استيلاء الشركات المتعددة الجنسيات وأغلبها أمريكي على الاقتصاد العراقي، وحتى هذه السياسة كانت كارثية في البلدان التي فرضت فيها وفي الواقع فإن هذه السياسة كانت السبب الرئيسي للفارق الحاد القائم في عالمنا اليوم ما بين البلدان الغنية ومستعمراتها السابقة.

ويعد تشومسكي من أصحاب الراي المستعدين على الدوام لدفع ثمن المجاهرة بتلك الآراء حتى أن كثيرًا من الصحف الأمريكية الكبرى، وبخاصة ذات الاتجاهات اليمينية قد ضربت صفحا عن نشر كتاباته في صفحات الراي وعلى رأسها الصحيفة الأمريكية الأشهر النيويورك تايمز لكنها في ٢٣ ـ ٢ـ ٢٠٠٤م وعلى غير العادة قامت بنشر مقال للرأي تحت عنوان "الجدار العازل سلاحًا" لكاتبنا وهو ما اعتبر وقتها تحولا نوعيا ضمن تحولات كثيرة طرأت على الصحيفة ذائعة الصيت في إطار إعادة قراءة الاوراق واكتشاف أين الخطأ في السياسة الأمريكية، التي نسفت ولا تزال الجسور مع العالم الخارجي وأقامت عوضا عنها جدارن من الكراهية والنفور فيما ربيبتها إسرائيل تقوم ببناء الجدار العازل.

يقول تشومسكي "من ردود الفعل الحكومية الفورية المتوقعة دائمًا أن تتذرع الحكومات بالاهتمامات الأمنية حين تقوم بأي عمل مثير للخلاف وغالبًا ما يكون هذا العمل ذريعة لشئ آخر لهذا يجب أن ندقق دائمًا في البواعث الحقيقية وراء ما تقوم به الحكومات من تصرفات ومن الامثلة الدالة على هذا "الجدار الذي تسميه إسرائيل جدارًا أمنيًا وهو موضوع المرافعات القانونية التي تبدأ اليوم " الاثنين ٢٣ـ ٢ ـ ٢٠٠٤م" في محكمة العدل الدولية في المدينة الهولندية " ذا هيج ".

وإذا كان لا يوجد أحد ينكر حقوق أي إنسان في التمتع بالأمن والأمان، فإن أحدًا كذلك لا يسأل السلامة من خلال الأكاذيب ذلك لأن الغرض الحقيقي الذي بني هذا الجدار من أجله هو الاستيلاء على أراضي الفلسطينيين كما أنه وسيلة لتحويل التجمعات الفلسطينية إلى زنزانات محصنة مما يجعل "البانتوستانات" التي اقيمت في جنوب إفريقيا سابقًا تبدو إلى جانبها كانها رموز للحرية، والاستقلال وتقرير المصير كما يقول عالم الاجتماع الإسرائيلي باروخ

كيملينج الذي وصف حرب إسرائيل ضد الفلسطينيين بأنها حرب تطهير سياسية.

ويصف تشومسكي جدار إسرائيل بأنه علامة كراهية، إذ استحوذ حتى الآن على أكثر الاراضي خصبا في الضفة الغربية وأهم من ذلك أنه وسع من سيطرة اسرئيل على مصادر المياه، التي تعد آمرًا مهما للغاية وهي المصادر التي تستطيع إسرائيل ومستوطنوها استغلالها بالشكل الذي يشاؤون في الوقت الذي لا يجد فيه السكان الفلسطينيون في هذه المناطق ماء للشرب.

والخلاصة عند تشو مسكي في قضية الجدار العازل الإسرائيلي هي أنه من المضلل تسمية هذه السياسات بأنها إسرائيلية، ذلك أنها سياسات آمريكية إسرائيلية حقيقية والذي مكن لها هو التأييد الأمريكي لإسرائيل عسكريًا واقتصاديًا وسياسيًا وقد ظل الوضع على هذه الشاكلة منذ ١٩٧١م حين رفضت إسرائيل بتأييد آمريكي عرض السلام الكامل الذي تقدمت به مصر مفضلة التوسع على الأمن كما استخدمت الولايات المتحدة في ١٩٧٦م حق النقض ضد قرار لمجلس الامن الدولي يدعو إلى حل يقوم على دولتين تماشيا مع إجماع دولي كاسح.

وقد جاءت توقعات تشو مسكي صادقة بأن انتهت المرافعات في المحكمة الدولية بحكم استشاري يقضي بأن الجدار غير قانوني، وهو ما لن يغير شيئ على الأرض وبذلك تفقد المنطقة ومن جديد اية فرصة للحل السلمي، وللحياة الكريمة من خلال بناء الجدارن العازلة وهدم اية محاولة لإقامة جسور التعايش المشترك.

ويبقى رأي رجل اللسانيات الأشهر في القضية الممتدة قضية الحرب على الإرهاب كما تطلق عليها واشنطن والتي استخدمتها كغطاء لتحقيق اجندة اقل ما يقال عنها "وحشية" فهل هي حرب ضد الإرهاب وعن حق؟.

يرى تشو مسكي أنها ليست حربًا ضد الإرهاب فأمريكا نفسها قائدة الإرهاب في العالم وقد ادينت من قبل محكمة العدل الدولية بدعم الإرهاب في العالم ولديها سجل حافل بذلك لا يخفي على أحد فإدارة ريجان جاءت للحكم عام ١٩٨١م حاملة شعار الحرب على الإرهاب وما يسمى الحرب على الإرهاب الآن إنما هو إعادة لما طرح مسبقا فقد شنت إدارة ريجان حروبًا في أكثر من مكان في العالم ففي الثمانينات أعلنت الحرب في أمريكا الوسطى التي تضم

جماعات مناهضة لسياساتها وقتلت هناك الآلاف منهم بل أن الامبريالية الأمريكية كانت تعتبر الكنيسة الكاثوليكية هناك من ضمن الأهداف الرئيسية المستهدفة بسبب وقوفها أمام شطحاتها ورغباتها الاستعمارية.

ويجمل تشو مسكي القول بأنه طالما ظلت هناك مظالم حقيقية وشعوب مقهورة وحقوق مسلوبة، وطالما نعامل البشر بازدراء واحتقار، نسرق أرضهم ونصادر ثرواتهم فإن رد الفعل الطبيعي المتوقع هو الانفجار حيث الكبت وعلى الدوام يولد الإسقاط والاسقاط يتبلور في صورة العمليات التي تسميها الولايات المتحدة الإرهابية.

والحاصل أن تشو مسكي عندما يكتب موضحا أسباب المعاناة والمرارة التي خلفتها العلاقة اليهودية الإسرائيلية للعالم بأجمعه، وللعرب بصورة خاصة فإنه رجل يحب نفسه كيهودي ويرى في الصهيونية نهاية الوجود لليهود في العالم كحركة عنصرية.

هو إذن كاره للصهيونية التي تدمر ولا تعمر وهو لا ينفك يسأل الطريق إلى البناء ومع أن غالبية الإسرائيليين لا تزال مصرة على المساواة بين كره اليهودية وكره الصهيونية فاننا نحن كعرب لنا مصلحة في استمرار هذا الإصرار كونه العنصر التفككي الحقيقي للشيزوفرانيا الإسرائيلية، التي بدات تترسخ ملامحها عبر تعميق صراع الهوية في إسرائيل التي تختبئ يوما وراء الآخر وراء الجدران رافضة سياسة إقامة الجسور.

# إدوار سعيد

## ١٩٣٥- ٢٠٠٠

## الاستشراق في وجه صدام الجهالات

هناك بين الحضارات التي تبدو أنها لا علاقة في ما بينها غير الحرب روابط أوثق مما يحلو لأكثرنا اعتقاده كما أن التواصل عبر حدود محصنة بعناية يجري بسهولة مخيفة بالنسبة لكارهي التواصل. إن صدام الحضارات مجرد موضة مثل حرب الأكوان وهي تصلح للتأكيد الدفاعي على الذات أكثر مما للفهم الانتقادي لتشابك العلاقات والاعتماد المتبادل الذي نجده في زماننا.

هو المفكر والباحث العربي الأصل الأمريكي الجنسية إدوار وديع سعيد المولود في مدينة السلام وزهرة المدائن "القدس العتيقة" عام ١٩٣٥م لم يكن يوما سعيدًا بهذا الاسم "إدوار" الذي يقول عنه في مذ كراته التي تحمل عنوان "خارج المكان" أن هذا الاسم الإنجليزي الأخرق وضع كالنير على عاتق "سعيد" اسم العائلة العربي القح وكانت أن أبلغته أمه أنها أسمته إدوار على اسم أمير بلاد الغال ووارث العرش البريطاني الذي كان نجمه لامعًا عام ١٩٣٥م.

عام ١٩١١م هاجر والده إلى الولايات المتحدة حيث تطوع في الجيش الأمريكي وعاد إلى فلسطين عام ١٩١٧م حاملاً الجنسية الأمريكية وقد ارتحلت الأسرة العربية البروتستانتية إلى مصر ليقيم في القاهرة حتى السابعة عشرة من عمره وبعد موقف متمرد من قبله بدأ أن مستقبله الدراسي قد ولى وضاع فسافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث تابع دراسة جامعية ناجحة في كبريات جامعاتها مثل برنستون وهارفارد، حيث أقام لمدة أربعين سنة شغل فيها الأوساط الفكرية الأدبية الأمريكية ورغم مرور السنين الطوال عليه في أرض الموعد الجديدة حسب تعبيرات اليمين الأمريكي الأصولي إلا أننا نراه يكتب قائلاً "مازلت أشعر نفسي بعيدًا عن بيتي" إنه إدوار سعيد الشريد المطلق وأستاذ الأدب المقارن في جامعة كولومبيا والموسيقى المعروف وكاتب المؤلفات الغزير الإنتاج صاحب المواقف المثيرة للحماسة والصارمة في كثير من الأحيان.

والأصل أننا لا نؤرخ للرجل لأن ذلك شأن آخر له متخصصوه لكننا ما بين الجدران والجسور نتطلع إلى الرجل العربي الذي جعل من ذاته قنطرة وجسرًا للعبور، إلى الآخر ولتفكيك الشفرات الخفية والمغلوطة المتعلقة بالعرب وقضاياهم بدءًا من القضية الفلسطينية التي كرس كل حياته لأجلها مرورًا بأزمة صراع الحضارات التي شغلت العالم طويلاً خلال التسعينات وأوائل القرن الحالي وصولاً إلى توصيفه لأزمة الدين في أمريكا، وكيفية التعامل مع العرب والمسلمين على ضوء تلك الأزمة. أما الاستشراق والامبريالية فقد استحوزت كتاباته عنهما على اهتمامات الالاف من القراء في جميع أنحاء العالم وليس بين العرب والمسلمين فقط وكانت تلك الكتابات تدور حول الديناميكيات

الحقيقية للقوة والهيمنة لذا كان إدوار سعيد وبحق رمزًا لقوة المعرفة، في مواجهة القوة المادية والاضطهاد.

يذكر البروفيسور رشيد الخالدي أستاذ التاريخ الحديث للشرق الاوسط بجامعة كولومبيا أن إدوار سعيد لم يكن من أبرز الوجوه العربية في الولايات المتحدة الأمريكية فقط لكنه كان أبرزها على الدوام.

حمل البرفيسور سعيد والذي لم يتمكن أحد من اخباره من أين جاء هذا الاسم الذي لم يكن لأي من أجداده لواء العروبة والإسلام في أمريكا منذ أوائل الستينات في الوقت الذي كانت مجرد كلمة عربي فلسطيني فيه تعتبر كلمة قذرة عند الغرب كان سعيد هو الشخص الوحيد الذي يظهر على شاشات التليفزيون وعلى صفحات الجرائد مدافعًا عن هويته العربية ـ الفلسطينية ومع أحداث يونيو ١٩٦٧م شعر الرجل بالعبء المتزايد الملقى على كاهليه وكان جديرًا بالتصدي لحملات التشويه والظلم الإعلامي من خلال الإعلام الأمريكي المخترق صهيونيا في جانب كبير منه حيث استغل قدرته الأكاديمية واللغوية في الدفاع عن الحق الفلسطيني الاصيل في الأرض وفي الوجود غارسًا في عقول وقلوب طلابه ومؤيديه إيمانًا ثابتًا وقناعة راسخة بأن "المضطهدين قادرون على التعبير عن واقعهم واحلامهم".

وكبقية حملة الرسالات التنويرية والجهادية في سبيل الحق ومناكفة الظلم تعرض إدوار سعيد لهجومات شرسة من الغالب الأعم من وسائل الإعلام الأمريكية بسبب آرائه حول الاحتلال الإسرائيلي إلى جانب تحقير الهوية العربية والإسلامية في العالم الغربي وقد كان دفاعه الدائم عن القضية الفلسطينية قرينا باقتناع تام بعدم جدوى العنف آخذًا بعين الاعتبار حقوق الإنسان في خضم ذلك الصراع الفلسطيني ـ الإسرائيلي وقد ساعد حديثه هذا عن القضية الفلسطينية التي كانت تشهد في تلك الآونة سلسلة من العمليات المسلحة في نقلها من المستوى الإثني الضيق إلى مستوى عالمي إنساني آخر يلقي آذانًا صاغية ولو كره الكارهون.

كان سعيدا صادقًا في دعوته حول قيام نظام "دولة واحدة وشعبين" وعلى الرغم من إدراكه التام أن المشاعر الشعبية ربما تعارض مثل هذا الاقتراح فإنه دعا إلى ضرورة بذل مزيد من الجهد لحث الشعبين الفلسطيني واليهودي على القبول بقدرهما المشترك مثلما حدث في جنوب إفريقيا وقد ظل ثابتًا على مبادئه

وعلى قيم العدل وحقوق الانسان التي كان يذكرها في أحاديثه دائما كما كان في ذات الوقت لاذعًا في نقده، تجاه الظلم والفساد في الدول العربية وبصفة خاصة في الأراضي المحتلة الخاضعة للسلطة الوطنية الفلسطينية وعلى الرغم من كونه مسيحيًا عربيًا فإن كتاباته عن الإسلام وعن صورته في العالم الغربي كانت غاية الإثارة الفكرية فقد كان واحدًا من أوائل الكتاب الذين تصدوا في كتاباتهم لمحاولة وسائل الإعلام الغربية بث صورة غير صحيحة عن الإسلام وخلق صورة رديئة عن المسلمين وعن حضارتهم.

يقول إدوار سعيد في كتابه "خارج المكان" واصفا بعض الاجواء في لبنان والتي قادت لاحقاً للحرب الاهلية "لمحت إرهاصات مبكرة لذلك العداء للإسلام تحت الاجواء المرحة التي سادت الاجتماعات العائلية في الظهور وبدت لي تعبيرا عن حماس متزمت للمسيحية، وهو حماس غير عادي لن تلقاه حتى بين الاتقياء المقدسيين، ولأن اسمى "إدوار سعيد" فقد اعتبروني مسيحيًا في لبنان مع اني إلى يومنا هذا وبعد سنوات من الاقتتال الأهلي أعترف بعجزي عن الشعور بأي تجاه على الإطلاق مع الفكرة القائلة بأن المسيحية ديانة يهددها الإسلام.

وقد تجلت هذه الروح في كتاباته لاحقًا منها على سبيل المثال ما يرد في كتابه "حول الإسلام" الذي طبع لاول مرة عام ١٩٨١م والذي يعد أحد الكتب العمدة في محاولة تقديم صورة غير نمطية عن الإسلام والمسلمين وقد كانت إجادته التامة للغة الإنجليزية وانتقاله في سن مبكرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية عاملين مهمين جعلا كتاباته أكثر وصولا إلى العقل الأمريكي الذي رأى في مفرداته جاذبية تبعد كثيرًا عن محاولة ترجمة حرفية عن الاسلام مجردة من الروح أو عن دور المترجمين الذين يعرفون اللغة في إطار الترجمة لا بقدرات التحدث بها والتعبير من خلالها مما جعلها تروق للكثرة من الأمريكيين حتى أولئك الذين ناصبوه العداء الفكري كانوا من أشد الحريصين على متابعة ما يكتب والإقرار لاحقًا بأنه كان سباقا في طروحاته ومنهم توماس فريدمان الكاتب الأمريكي اليهودي في صحيفة النيويورك تايمز الأمريكية ذائعة الصيت الذي أشار في كتاباته لاحقًا إلى الحل الذي ذكره إدوار سعيد في الماضي والمتعلق بإيجاد حل للمشكلة الفلسطينية - الإسرائيلية.

وفي الحديث عن "إدوار سعيد" والدور الذي قدمه كقنطرة أو جسر بين الشرق والغرب لا يستطيع الباحث أن يغفل دوره في قضية الاستشراق التي استغرقته كثيرًا وتجلت في كتابه البالغ الأهمية حول القضايا المثيرة للجدل في

شأن"الاستشراق" والذي ينظر للعلاقات بين الشرق والغرب وكيف تناول الأوروبيون خاصة والغربيون عامة "الشرق" كيف فهموه وتعاملوا معه من خلال التجربة والتاريخ الأوروبي.

وقبل الاستغراق في فكر الاستشراق عند "إدوار سعيد". ينبغي الإشارة إلى أن كونه مسيحيًا بروتستانتيا إنما يعني فهمه للكثير من مفردات العالم الغربي عامة والأمريكي خاصة، الذي احتل فيه الدين رغم كل ما يقال عن علمانية الغرب دورًا واسعًا ولا سيما بعد انتشار الحركات البروتستنتية والتي كان واحد من أتباعها مما جعله قادرًا على تحليل المفردات وتلبس شخصيات وأدوار الآخرين والنظر بذات المنظار الذي قدر لهم استخدامه.

لم يكن "إدوار سعيد" مهتمًا في كتابه بإظهار روح التناقضات بين الرؤية الغربية للشرق، وبين الشرق ذاته باعتباره واقعًا مغايرًا بل ذهب اهتمامه إلى دراسة وفحص تكوين خطاب الاستشراق.

أما دور سعيد فقد تجلى في مناقشة الافتراض الأساسي الذي بني عليه المستشرقون خطابهم، وهو وجود اختلاف جذري وتناقض حتمي بين الشرق والغرب، الشرق المتخلف المظلم التقليدي والغرب المتقدم المستنير الحديث، هذه الفرضية وهذا التمايز يؤدي إلى تعريف للذات الغربية وتعريف للاخر الشرقي أي أن معرفة الذات في هذه الحالة تغدو مستندة استنادًا أساسيًا إلى صورة سلبية لاخر شرقي وهمجي، وكان دور "إدوار سعيد" هو دراسة ما يدعم هذا الخطاب من مؤسسات ومعاهد دراسية ومفاهيم ومصطلحات وتخصصات علمية وبيروقراطية استعمارية.

والحق أن الدكتور "إدوار سعيد" قد قدم صنيع للإسلام والمسلمين لم يقدمه له أجيال من أبنائه الذين ذهبوا للغرب للاغتراف من معينه فقد كشف الراحل الكريم في كتابه "الاستشراق. الانشاء. المعرفة. السلطة" عن جريمة المؤسسة الاستشراقية فيما سماه "شرقنة الشرق" هذه الشرقنة التي وضعت الإسلام عند الإنسان الغربي في سجن التصور الاستشراقي منذ صلة أوربا بالشرق حتى اليوم. إلا أنه قد أصبح من الواضح وطبقا لدراسة "إدوار سعيد" أنه افتقد هذه المنهجية تمامًا في دراسته للشرق في جميع أدواره إذ أصبح الشرق عنده هو الشرق الذي يصنعه لأغراض في المعرفة والسلطة أو هو الشرق الذي يشرقنه على حد تعبير إدوار سعيد.

ومن خلال استرجاع صور الماضي حذر الدكتور سعيد من عودة الاستعمار في جلباب آخر أكثر عصرنه، ويعطي مثالا بتصريحات اللورد بلفور التي تكشف الفوقية البريطانية في السيادة مقابل الدونية المصرية في رايه اذ يقول بلفور وهو منتفخ الاوداج في خطبة له بمجلس العموم مبررًا احتلال مصر "ان الامم الغربية فور انبثاقها في التاريخ تظهر تباشير القدرة على حكم الذات لأنها تمتلك مزايا خاصة بها ويمكنك أن تنظر إلى تاريخ الشرقيين بأكلمه دون أن تجد أثرًا لحكم الذات على الإطلاق، كل القرون العظيمة التي مرت على الشرقيين ولقد كانت عظيمة جدًا انقضت في ظل الطغيان.

أما المعنى والمبنى في مقولة بلفور فهو أنه خير لهذه الامم العظيمة أن نقوم نحن بممارسة هذا النمط من الحكم المطلق عليها، وهي ذات الاسطوانه المكررة المجوجة التي نستمع اليها اليوم وبنفس المنطق من الولايات المتحدة الأمريكية وعبرت وزيرة خارجيتها كونداليزا رايس.

وإذا كان الدكتور "إدوار سعيد" قد صال وجال في ميدان الاستشراق فبنفس القدر كان حاضرًا على مائدة الصراع الإنساني على التراث البشري وهو صراع أراد ولا يزال تقسيم العالم إلى كانتونات معزولة وبانتوسونات محددة لا تتسم الا بالعزلة، ونقصد بتلك الكلمات نظرية صدام أو صراع الحضارات التي خرج بها على العالم صموئيل هنتجتون في مقاله الشهير في عدد ربيع ١٩٩٢م من مجلة "فورين أفيرز" والتي جذبت فورًا مقدارًا مفاجئًا من الاهتمام وردود الفعل وقد توجهت المقالة إلى الأمريكيين وهدفت إلى تقديم مقولة أصيلة عن المرحلة الجديدة على صعيد السياسة العالمية بعد انتهاء الحرب الباردة تقوم على مفاهيم ظهرت قوية وجريئة وبعيدة الرؤية.

وفي تعليق أولي على مقالة هنتجتون يقول الدكتور "إدوار سعيد" إن أكثر الحجج في الصفحات التالية من المقالة إنما تقوم على فكرة غامضة عن شئ يسميه "الهوية الحضارية" ويتحدث عن التفاعلات بين سبع أو ثماني حضارات رئيسية الا أن القسم الأكبر من اهتمامه ينصب على الصدام بين اثنين منها الإسلام والغرب، ويعتمد إلى حد كبير في خطه الفكري العدائي هذا على مقالة نشرها المستشرق المخضرم برنارد لويس في ١٩٩٠م بعنوان يرشح بتوجهها الآيديولوجي هو "جذور الغضب الإسلامي".

كيف كان رأي "إدوار سعيد" جهة هذه الاطروحة التصادمية؟ يقول في رده الذي حمل عنوان "صدام الجهالات" إن المقالتان تقدمان بثقة تصل إلى حد التهور تصورًا مبسطًا لكيانين هائلين، يحفلان في داخل كل منهما بالكثير من التمايز والتضارب هما الإسلام والغرب لكي يحولهما إلى ما يشبه شخصيتي افلام الكرتون "بوباي" و "بلوتو" في عراكهما المستمر الذي ينتهي دوما بانتصار الشخصية الطيبة ولا يجد هنتجتون أو لويس متسعًا من الوقت لدراسة الحركيات الداخلية في كل من الحضارتين وما فيهما من التعددية، أو إلى أن التنافس الرئيسي في غالبيته الثقافات الحديثة يدور على تعريف أو تفسير كل من الحضارتين كما لا يعيران انتباها إلى احتمال خطير وهو أن التنطع للكلام عن حضارة أو ديانة بأكملها ينم عن الكثير من الديماجوجيه والجهل. كلا، الإسلام بالنسبة لهؤلاء هو الإسلام والغرب هو الغرب لهذا يقول هنتجتون إن التحدي أمام صانعي السياسة الغربية ضمان تزايد قوة الغرب لكي يستطيع صد كل الآخرين خصوصًا الإسلام.

وعند الدكتور سعيد أن الإثارة والقلق يأتيان من أن افتراض هنتجتون أن منظوره أي استطلاع العالم بكليته من موقع متعال يخلو من الولاءات هو المنظور الصحيح، وكأن كل ما عداه يدور في حلقة مفرغة بحثًا عن أجوبة يمتلكها هو بالفعل لكن الواقع أن هنتجتون إيديولوجي - يقول د. سعيد - يريد تحويل الحضارات والهويات إلى غير ما هي عليه في حقيقتها معتبرًا إياها كيانات منغلقة عن بعضها بعض، وخالية من داخلها وفي ما بينها من التيارات والتيارات المعاكسة التي تشكل تاريخ الإنسانية ومنعت هذا التاريخ عبر القرون على الاقتصار على الحروب الدينية، والامبريالية بل أن يكون أيضًا مجالا للتعامل والإخصاب المتبادل والمشاركة.

هذا التاريخ الأقل بروز يتم إغفاله في الاندفاع لتسليط الضوء على مفهوم مضحك في ضيقه وابتساره للتاريخ مفهوم صدام الحضارات الذي يعتبر أن الحرب وحدها هي الحقيقة أما الرؤية التي لا تشوبها شائبة عند الدكتور إدوار سعيد فهي أن هناك بين الحضارات التي يبدو أنها لا علاقة في ما بينها غير الحرب روابط أوثق مما يحلو لاكثرنا اعتقاده، وأن التواصل عبر حدود محصنة بعناية يجري بسهولة مخيفة بالنسبة لكارهي التواصل لكن اعتبارات مثل هذه بما تنطوي عليه بالضرورة من مفارقات وتشكيك في أفكار نتمسك بها لا توفر دليلاً عمليًا يذكر للتصرف إزاء الوضع الحالي، من هنا فالأسهل دوما الركون

إلى تقسيمات قتالية واضحة "حملة الخير على الشر" "الحرية مقابل لخوف" مستقاة من التضاد الذي يقيمه هنتجتون بين الإسلام والغرب وهو ما اعتمده الخطاب الرسمي في الأيام الاولى على كارثة الحادث عشر من سبتمبر ٢٠٠١م.

ويؤكد الدكتور سعيد في نهاية طرحه على أنه وإن كان هناك تراجع ملحوظ عن هذا الخطاب، فإن استمرار تدفق لغة الحقد والأعمال العدوانية المرافقة إضافة إلى التقارير عن تجاوزات سلطات الأمن ضد العرب والمسلمين والهنود في أنحاء البلاد، يعني أن النموذج الأصلي لايزال على حاله وفي النهاية تبقى مقولة "صدام الحضارات" مجرد موضة مثل "حرب الأكوان" وهي تصلح للتأكيد الدفاعي على الذات أكثر مما للفهم الانتقادي لتشابك العلاقات والاعتماد المتبادل الذي نجده في زمننا.

وتبقى في هذه الصفحات القلائل الإشارة إلى أن "إدوار سعيد" كان من الطليعة العربية التي استطاعت أن تفهم بحكم معطيات كثيرة ليس أقلها عدد السنوات التي أمضاها في الولايات المتحدة، دارسًا وباحثًا ومفكرًا نقول استطاع أن يفهم أمريكا "المظهر والمخبر" وأن يفض اشتباكات الخطوط وتداخل الخيوط.

يقول في مقال له في مجلة اللوموند ديبلوماتيك الفرنسية تحت عنوان "الولايات المتحدة بمنظار آخر" إن نظرة القادة العرب ومستشاروهم المتخرجون عادة من الولايات المتحدة بعيدة تمامًا عن الواقعية نظرة تفتقد فعلاً إلى التماسك إذ تتمحور حول الفكرة القائلة بأن الأمريكيين يقررون كل شئ في العالم حتى وإن كان هناك في التفاصيل تشكيلة واسعة وحتى معقدة من الآراء المختلفة بدءًا بالمقتنعة أن الولايات المتحدة ليست سوى مؤامرة يهودية، إلى تلك القائلة بأنها ليست الا مصدرًا لا ينضب للبراءة والطيبة ومساعدة الضحايا، أو أيضا أنها تدار من الالف إلى الياء من البيت الابيض عبر شخصية بطولية تتمثل برجل أبيض لا نزاع على سلطته.

ومن معينه الشخصي يدلل على محاولاته لان يكون جسرًا بين طرفين عربي وأمريكي ونراه يضيف "على مدى عشرين عامًا كنت فيها أتردد على السيد ياسر عرفات حاولت مرارًا أن أوضح له أن أمريكا هي مجتمع معقد

تتشابك فيه التيارات والمصالح والضغوط والقصص المتميزة وأنها لا تحكم مثل سوريا مثلاً وأنها كحكم وسلطة نموذج مختلف يستحق الدراسة وقد جندت لهذا الغرض صديقي المرحوم إقبال آحمد الذي تحلى باطلاع عميق على المجتمع الأمريكي والذي كان ربما أفضل المنظرين والمؤرخين، لحركات التحرر الوطنية، وقد رغبت إليه آن يبحث بمشاركة غيره من الخبراء مع السيد عرفات في تطوير نموذج آكثر دقة كان في إمكان الفلسطينيين أن يستفيدوا منه في الاتصالات التمهيدية مع الحكومة الأمريكية في أواخر الثمانينات لكن ذلك باء بالفشل لأن السيد عرفات لم يكن يحلم إلا بأمر واحد وهو أن يدعي شخصيًا إلى البيت الابيض، ويتفاوض مباشرة مع هذا الرجل من البيض السيد بيل كلينتون.

ولا يفوت الدكتور سعيد أن يعرج في قراءته على أمريكا المتطهرة المسيحية فيشير إلى أنها الدولة الوحيدة في العالم التي تبدي بشكل علني تمسكها بأهداف الدين، فحياة الامة الأمريكية مشبعة بالإحالات على الله من قطع النقد إلى المباني العامة إلى الشهادات اللغوية من مثل " بالله نؤمن IN GOD WE TRUST إلى بلاد الله GOD,S COUNTRY إلى بارك الله أمريكا GOD BLESS AMERICA كما يلفت إلى أن القاعدة الشعبية التي قام عليها حكم جورج بوش الابن مؤلفة من حوالي ٦٠ إلى ٧٠ مليون رجل وامراة يؤمنون مثله أنهم التقوا يسوع المسيح وانهم وجدوا على الأرض من أجل اتمام عمل الله.

لكنه في الان عينه يفصل بين عينات المتهوسين الدينين ويؤكد على وجود جماعات مسيحية مثل الاساقفة الكاثوليك كانت قد اتخذت مواقف تقدمية لافتة في مسائل الحرب والسلام أو ثاروا على انتهاك حقوق الإنسان في الخارج أو على الموازنات العسكرية الضخمة أو على السياسة الاقتصادية النيوليبرالية التي قضت على القطاع العام منذ أوائل ثمانينات القرن الماضي.

وتبلغ به موضوعية الجسر الصلب الذي لا يخشى أن يخطو الاخرون عليه لأن يؤكد تاريخيًا أنه كان هناك قسم من الطائفة اليهودية المنظمة التزمت على الدوام حركات النضال من أجل حقوق الاقليات داخل البلاد وخارجها.

والمقطوع به أن هذه السطور ليست إلا تحريك للماء الراكد إن بالاتفاق أو بالافتراق مع مواقف الراحل الكبير "د. إدوار سعيد" والتي لا تفيه وريقات حقه لكنها على قصرها واختزالها في جمل وعبارات إنما تدفعنا للدخول في لجة عواصف الأفكار التي أثارها ابن القدس حتى يجعل منها جسرًا ناقلا الإسلام والعروبة إلى الولايات المتحدة وحاول جاهدًا أن يجعل من ذاته تيارًا عكسيًا لعل بلاده تعي ماذا يدور داخل الامبراطورية الأمريكية لذا يبقى الرجل على الدوام داخل الأوطان وليس خارج المكان.

# جون اسبوستو

(١٩٤٠م: .....)

## التهديد الإسلامي بين الواقع والخيال

لقد أخطأ الغرب حينما صور في الماضي العرب والمسلمين على أنهم بدو وصحراء وإبل وتعدد زوجات وحريم فاختزل بذلك الإسلام والجهاد الإسلامي في مقولة التطرف الإرهابي الديني مجاوزا للحقيقة فالعنف والإرهاب والظلم هي ظواهر إنسانية موجودة في العالم الإسلامي كما في بقية العوالم والعواصم غير الإسلامية .

**ماذا تعني لفظة الاستشراق؟**

الاستشراق ORIENTALISM تعبير يدل على الاتجاه نحو الشرق. ويطلق على كل ما يبحث في أمور الشرقيين وثقافاتهم وتاريخهم ويقصد به ذلك التيار الفكري الذي يتمثل في إجراء الدراسات المختلفة عن الشرق الإسلامي، والتي تشمل حضارته وأديانه وآدابه ولغاته وثقافته، ولقد أسهم هذا التيار في صياغة التصورات الغربية عن الشرق عامة وعن العالم الإسلامي بصورة خاصة معبرًا عن الخلفية الفكرية للجدل الحضاري القائم بينهما.

وربما يكون من الصعوبة بمكان تحديد بداية للاستشراق إذ أن بعض المؤرخين يعودون به إلى أيام الدولة الإسلامية في الأندلس، في حين يعود به آخرون إلى أيام الصليبيين، بينما يرجعه كثيرون إلى أيام الدولة الأموية في القرن الثاني للهجرة وأنه نشط في الشام بواسطة القديس يوحنا الدمشقي JOHN OF DAMACUS.

والحقيقة هي أن حديث الاستشراق هو حديث ذي شجون ذلك لأن الدور الذي قام به غالبية المستشرقون في الغالب إنما كان عاملاً بشكل كبير في تخريب العلاقة بين الشرق والغرب، في مواقع ومواضع كثيرة حتى أن آراء هؤلاء غير المنصفة في كثير من الأحيان لم تكن مجرد سطور في بطون الكتب ولكنها أضحت حقائق حياتية، ذات أثر ملموس في وجدان الرجل العادي في الغرب.

ويقول الدكتور "إدوار سعيد" في هذا الإطار "تطغى هذه الآراء المعاصرة للمستشرقين على الصحافة والعقل الشعبي فالعرب يصورون راكبي جمال. إرهابيين، معقوفي الانوف شهوانيين شرهين تمثل ثروتهم غير المستحقة إهانة للحضارة الحقيقية.

وإذا كان من بين المستشرقين الكثيرين الذين تجنوا على العالم الإسلامي بشكل كامل وبصورة غير موضوعية فإن هناك أصواتا كثيرة ظلت على موضوعيتها وحيادها وكانت عن حق جسرًا بين العالمين الإسلامي والمسيحي وبين الشرق والغرب ومن بين الأصوات يعلو صوت "جون اسبوستو" وهو على خلاف المعروف في الأوساط الإعلامية العربية ليس راهبًا يسوعيًا بل أنه

كاثوليكي علماني آي ليس من رجال الاكليروس، ومن الذين يقومون على الحوار وهو مؤسس مركز الحوار الإسلامي المسيحي في إحدى أكبر وأعرق الجامعات الكاثوليكية في الولايات المتحدة الأمريكية جامعة "جورج تاون" في واشنطن.

وربما يكون في الأمر من مصادفات القدر ما يضحك أو يبكي ذلك لأنه في الوقت الذي يؤسس فيه اسبوستو مركزه كان صوت هنتجتون أحد الأعداء الأشداء للعالمين العربي والإسلامي يؤكد ويشدد على أن الإسلام هو أحد الأعداء الرئيسيين للغرب ويرى أن التحدي الإسلامي، يتجلى في الأصولية الإسلامية ووفقاً لهنتجتون فإن بضع حضارات تشكل التحدي الأكبر للمصالح والقيم الغربية وعلى رأسها الارتباط الإسلامي - الكونفوشيوسي أي العربي - الصيني الذي هو في نظره مؤامرة بين ثقافتين ساخطتين لتقويض قوة الغرب عن طريق تدفق للأسلحة والتكنولوجيا من الصين الكونفوشسية على بلدان إسلامية.

فإذا خلينا الحديث عن الصين وحضارتها الكونفوشسية جانبًا يبقى لدينا تساؤل هنتجتون هل يمثل الإسلام تحديًا أعظم للحضارة الغربية التي يرى بشكل آو بأخر أنها مسيحية في الجزء الأعم منها؟

أحسب آن جون اسبوستو قد تكفل عبر كتاباته وفعاليات مركزه ومن خلال العديد من الأوراق الثقافية القيمة التي قام عليها بالرد على مثل هذا التساؤل.

من هو جون اسبوستو؟

يُعد الرجل واحدًا من أشهر وأهم الأساتذة والباحثين الأمريكيين في العقدين الأخيرين في الولايات المتحدة الأمريكية والذي دارت أعماله حول الإسلام والمسلمين حتى أنه هناك شبه إجماع على أن دراساته تتسم بكثير من الموضوعية، لدرجة أنه أضحى يعد نموذجًا فريدًا من نماذج العلماء الذين استهدفت دراساتهم الوصول إلى حقيقة الدين الإسلامي ناهيك عن بحثه في طبيعة ودوافع وتوجهات الحركات الإسلامية الإحيائية وقد ركز كل جهوده من خلال عمله كأستاذ للأديان والعلاقات الدولية في جورج تاون للخروج بالاطروحات الأكاديمية إلي منتديات الحوار من خلال مركز التفاهم الإسلامي المسيحي موجهًا النشاط البحثي هناك لخدمة التقارب بين الإسلام والغرب.

قدم اسبوستو ستة كتب تناولت الإسلام من جوانب شتى كان من أهمها "التهديد الإسلامي أسطورة أم حقيقة؟" والدافع من وراء كتابته لهذا العمل على حد شرحه هو تفريغ الحتمية التصادمية التي تقول بضرورة المواجهة الإسلامية المرتقبة مع الغرب من محتواها على أسس من البحث العلمي السليم والتأصيل للمرض لا الحكم على العرض من خلال فهم واع لجذور الإسلام كدين ولظاهرة الحراك الإسلامي في القرن العشرين.

والمؤكد أنه حينما طل اسبوستو على العالم من نافذ مركز الحوار والتفاهم كان المشهد الأمريكي الداخلي مأساوي ولاسيما في أعقاب أحداث الحادي عشر من سبتمبر والذي لا يمكن اختزال الفهم المغلوط للإسلام والمسلمين في القول أنه كان من جراءه بدليل وجود اطروحات سلبية مشابهة لأطروحة هنتجتون وإن كانت لم تحظ بنفس البريق الإعلامي فهناك على سبيل المثال أقوال الرئيس الأمريكي الأسبق ريتشارد نيكسون في كتابه "انتهز الفرصة SEIZE THE MOMEST وهو تكرار لنفس النهج الذي يحذر من تزايد عد سكان العالم الإسلامي إضافة إلى وجود عائد ضخم من الثروة بين أيديهم لذا فإن الغرب يجد نفسه مضطرًا لعقد حلف جديد مع ما تبقى من الإمبراطورية السوفيتية لمواجهة عالم إسلامي معاد ومعتد فالإسلام والغرب حسب تصور نيكسون متناقضان ومتباينان.

أما عن واقع الإعلام الأمريكي فحدث عنه ولا حرج، إذ أصبح لا هم له صباح مساء كل يوم إلا الحديث عن العدو الأخضر الزاحف على بلاد العم سام "دار الحرب" بالنسبة له والذي يريد تدميرها حيث أنها تمثل بالنسبة له ديار الكفر وأنه لا طائل من الحوارات والنقاشات مع العرب أو المسلمين وعلى الغرب أن يعد العدة لمواجهة عسكرية شاملة مما حدا بالكثيرين لان يعيدوا على الأذهان ذكريات أليمة تمثلت في أيام حروب الفرنجة.

والمثير هنا جهة "جون اسبوستو" أنه قد استطاع الوقوف في وجه هذه الهجمة الفكرية على كل ما هو إسلامي واصفًا كتابات هنتجتون واطروحات برنارد لويس بأنها جاءت عاجزة عن تعليل وتفسير التجربة الإسلامية وأنها لم ترو القصة بجوانبها كافة وإن كانت قد القت بعض الضوء على كثير من جوانب تاريخ العلاقات بين الإسلام والغرب لذا فإن هذا الضوء من وجهة نظره جاء باهتا طامسًا أو مشوهًا للصورة الكاملة ولم يوضح منها شيئًا بل أنها تسببت في اختزال الإسلام وحركة الأحياء الإسلامي إلى مجرد صور نمطية لإسلام معاد

للغرب أو للحرب التي يخوضها الإسلام ضد الحداثة، أو للغضب والتطرف والتعصب والإرهاب.

وقد تخطى اسبوستو مرحلة التصريحات الكلامية إلى الواقع العملي ففي أبريل نيسان من عام ٢٠٠٠م كان يرعى بمشاركة مؤسسة الدراسات والبحوث في واشنطن والتي تقوم على تعزيز قيم التسامح والعيش المشترك بين الأديان والتي يرأسها الدكتور أحمد يوسف الفلسطيني الأصل الأمريكي الجنسية مؤتمرا بعنوان "أمريكا والإسلام في مطلع الألفية" ولم يسلم يومها اسبوستو من السهام التي وجهت إليه والانتقادات الصحفية لمركز التفاهم الذي يرأسه فكيف له أن يشارك مركزًا إسلاميًا أصوليًا من وجهة نظر جمهور كبير من المغالين من التيارات اليمينية الأصولية على اختلاف مللها ونحلها داخل المجتمع الأمريكي؟.

والحق أن الرجل كان موضوعيًا عندما تساءل متحديًا أولئك المهاجمين للإسلام والمسلمين وعلى رأسهم برنارد لويس حينما قال: هل يمكن أن نتسامح إزاء إطلاق تعميمات مماثلة عند تحليل وتفسير تصرفات ودوافع الغرب؟ وكيف ستكون نظرتنا للمقالات التي تتحدث عن جذور الغضب المسيحي أو الغضب اليهودي؟ وعن القنبلة المسيحية أو القنبلة اليهودية.

ويعيب اسبوستو أشد ما يعيب على التحليل الانتقائي الغربي المتعصب لبعض المشاهد في حياة العرب والمسلمين والتي يريد البعض هناك أن يجعل منها الجامع المانع والأمر الذي يصيب كبد الحقيقة وعن زيف لا عن حق، حتى أنه يعلق غير مرة بقوله "أن الأمر أصبح بمثابة فرض غشاوة من الجهل على رؤية الغرب للإسلام وللحضارة الإسلامية وإذا كان الكثيرون من كتابنا العرب ومثقفينا يقولون بأن وهم نظرية المؤامرة هو المحرك الرئيسي لأفعالنا التي هي ردود أفعال في واقع الأمر، وليست أفعال بالمعنى الإيجابي الأوسع والأشمل فكيف يجيبون على رؤية اسبوستو الأمريكي الجنسية الكاثوليكي المذهب الذي يرى أن وراء محاولة إلباس الإسلام والمسلمين عباءة العدو الأخضر تقف أهداف سياسية يريد البعض خدمتها إلى جانب استراتيجيات عسكرية وأمنية يتطلعون إلى بسطها على كافة الأحوال ناهيك عن محاولة إرضاء الصهيونية العالمية ودعم الأهداف الإسرائيلية؟

ولا يقتصر الأمر على هذا بل أن اسبوستو يحاول أن يضع النقاط على الحروف جهة الدور الذي تقوم به إسرائيل ومن نهج نهجها من رجالات المراكز البحثية الصهيونية في الولايات المتحدة الأمريكية وعلى رأس هؤلاء برنارد لويس.

يقول لويس "لقد اعتاد المسلمون أن يفقدوا الكثير من الأرض عبر تاريخهم وتعودوا أيضًا نسيانها" في إشارة إلى الدولة العثمانية أيام استعادة الاوربيين لأراضيهم أو للأندلس التي استعادها كذلك ويكمل قائلاً لماذا لم يتمكنوا هؤلاء المسلمون من نسيان فلسطين؟

والإجابة عنده لأنها في يد اليهود وبالتالي فإن الأمر يُعد شكل من أشكال اللاسامية.

لذا فإن اسبوستو يحسب له أنه من الذين فكروا بعزم وعملوا بحزم من أجل إظهار الدور الخطير الذي يلعبه الإعلام الصهيوني في تشويه صورة كل من هو عربي ومسلم كما لفت الانتباه إلى أن إسرائيل حرصت على الدوام على إقناع الغرب بقدرتها على مواجهة ودفع الخطر الإسلامي وذلك بعدما سقطت حجتها السابقة، بأنها تقف سدًا منيعًا ضد انتشار الشيوعية، وبذلك لتقت مصالح إسرائيل مع مصالح الولايات المتحدة في التضخيم والتخويف من الخطر الإسلامي وإضفاء الصفة العالمية عليه استدرارًا للمعونات وجذبا للدعم السياسي.

وفي قلب الاهتمامات التي أولاها اسبوستو اهتمامه كانت قضية "الإسلام والغرب" لاسيما وأنه ينطلق من أرضية كاثوليكية لها مرجعيات تتمثل في المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني الذي نفى أصلاً وجود مثل هذه العداوة أو لقطيعة بين الإسلام وبين العالم الغربي بل حث الجميع على بلورة تعايش مشترك لكن أصحاب المصالح الخبيثة كانوا قد عقدوا العزم على جعل الإسلام بديلاً دينيًا وإيديولوجيًا يمثل خطرًا كامنا يحيق بالمسيحية أولا وبالحضارة الغربية ثانية، ووصل الأمر بهؤلاء ليرشحوه محل الشيوعية في عملية استبدال فاقعة للالوان يستعيضون فيها بخطر اللون الاحمر رمز الشيوعية باللون الاخضر كرمز للإسلام والمسلمين والحاصل أن اسبوسيتو بدوره رفض من قناعات دينية وعقلانية ترشيح الإسلام باعتباره "العدو التاريخي" للغرب.

كانت رؤية اسبوستو ولا تزال تستنهض همم الكتاب وتلفت أنظار المفكرين والساسة في الغرب إلى أن النظر إلى الإسلام نظرة مبتسرة جزئية على أنه "إمبراطورية الشر الجديدة" بعدما سقطت إمبراطورية الشر السوفيتية هو أمر

غاية في الخطورة وكفيل بنسف العلاقات بين العالم الغربي والإسلام وربما يؤدي إلى قيام حرب عالمية باردة أو ساخنة جديدة أما البديل الذي يطرحه فإنه لابد أن يأخذ الغرب في حساباته أن الإسلام دين عالمي وفي ذات الوقت قوة إيديولوجية يعتنقها خمس سكان العالم تقريبًا مما يجعل له وزنه وأثره لذا فإن اسبوستو يدعو للقفز فوق الجزئيات وتحليلاتها أو التمسك بالقشور والطنطنة المجوجة التي ترشح في الأذهان صورة نمطية مريحة بمعنى أن المسلم إرهابي وأن الإسلام دين الإرهابيين وهو ما يغني رجال المراكز البحثية عن التفكير العميق لاستجلاء حقائق الأمور وما الدوافع وراء ظواهر الإرهاب وكذا فإن دعوته تمتد إلى تجاوز الافتراضات العلمانية الغربية المسبقة منعًا للوقوع في السقطات والتحيزات الأيديولوجية التي تزخر بها كثير من التحليلات السياسية التي تنطلق من الإيمان بوجود حتمي لعدو إسلامي.

كما أن اسبوستو يرى في أطروحات السياسي الأمريكي المحافظ والمرشح السابق للرئاسة الأمريكية باتريك بوكانان نموذج للفشل في ادراك الأسباب الحقيقية للخصومة بين الغرب والإسلام المعاصر ذلك لان بوكانان يرى أن العقيدة الإسلامية عامل حاسم في حياة الإسلام والمسلمين لذا فإن الإسلام نضالي حركي وينمو بصورة كبيرة بين أتباعه وأن المحاربين المسلمين مستعدون لمواجهة الهزيمة والموت بينما يتحاشى الغرب تكبد الخسائر في صفوفه لذا فإن العالم الإسلامي كما يدعي مقبل لامحالة على الاشتباك مع الغرب وما من مفر أمام أوربا وأمريكا سوى المواجهة العسكرية ومهما كلفت لا يهم كم نقتل ولا حجم الخسارة التي سنلحقها بالخصم. ولا ينسى بوكانان كذلك الربط بين النمو السكاني المتزايد في العواصم العربية والإسلامية وبين ما يسميه التطرف الإسلامي الذي لا يقارن إلا بنفس الزيادة السكانية في الصين المواكبة للتطرف أو المد الكونفوشيوسي.

ونخلص من قراءات مطولة للرجل إلى أن الأسباب الحقيقية للصراع والمواجهة ليست بين الشرق والغرب من منطلق أن الاول إسلامي والثاني مسيحي بل لأن هناك تضارب جدي في المصالح بين الطرفين منها ماهو اقتصادي واجتماعي في حين يأتي على رأسها تصارع في المصالح السياسية.

ومن هنا فإن اسبوستو يرفض التوقف طويلاً أمام أحاديث من التي تركز على مسالة صدام الحضارات وخصومة التاريخ ويذهب في صدق وواقعية نادرتان

إلى تحديد عدة مشاهد جذرت للعداوة والبغضاء بين العرب والمسلمين، والعالم الغربي عامة والولايات المتحدة الأمريكية خاصة منها على سبيل المثال:

- امتلاء الذاكرة الجمعية للعرب والمسلمين بمشاهد الاستعمار الغربي في البلاد العربية والإسلامية وإن كان الاستعمار قد حمل عصاه ورحل عسكريا الا أنه لا يزال باسطا هيمنته السياسية من خلال سياسات لم تتوقف بعد تجعله في وضع صانع الأوامر في إطار من منظومة الأسياد والعبيد آما الآليات فتبدأ من مجلس الأمن الدولي مرورًا بصندوق النقد الدولي والبنك الدولي إلى آخر تلك المؤسسات الدولية التي تخدم هيمنة الغرب
- خضوع السياسة الشرق أوسطية لرغبات وهيمنة إسرائيل على الولايات المتحدة مما يجعل من الأخيرة منحازة بشكل سافر لإسرائيل كما أنها على الدوام تغمض عينيها عن الممارسات الوحشية في فلسطين.
- مساندة الولايات المتحدة الأمريكية للانظمة الاستبدادية القمعية رغم تصاعد المد الشعبي ضدها مثلما حدث من قبل في إيران والسودان.
- الفشل في وضع خط فاصل بين الحركات الإسلامية المعتدلة والمتشددة.

ويبلور "اسبوستو" فهما أوسع لتصاعد العنف في العالم الإسلامي ولاسيما بعد انتهاء المواجهة بين القطبين الكبيرين الروسي والأمريكي وهو هنا يتفق مع جمهور من المفكرين والباحثين الذين راوا في الضغوط التي يمارسها النظام العالمي الجديد والتحديات التي تفرضها العولمة على الكيانات الوطنية والحضارية سببًا رئيسيًا في تحول نشاط الجماعات الإسلامية من مواجهة لأنظمة الحاكمة المستبدة، والموالية غالبًا للولايات المتحدة والغرب أو المغلوبة على أمرها إلى مواجهة عنيفة مع الغرب كرد فعل على السياسات الظالمة والمنحازة التي تُمارس ضد العرب والمسلمين في كل مكان.

وللبرفيسور "اسبوستو" دورًا فكريًا لا ينكر في الوقوف في وجه المقولة التي صطلحها "هنتجتون" مقولة "الحدود الدموية للإسلام" وقد عدها اسطورة من ضمن تلك الاساطير التي يروج لها الغرب لذا فإنه يرى أن التحدي الحقيقي للغرب ليس في الإسلام ودمويته المزعومة ولكن في قدرته على التفهم الأفضل لتاريخ وأبعاد العلاقة بين الإسلام والغرب وفي ذات الوقت يرفض بسط مصطلح "الأصولية" بشكل سافر ومطلق على العالم الإسلامي أو المسلمين، ويرى أن

الأصولية تعريف لا ينطبق الا على عدد قليل من الاشخاص أو المنظمات الشرق آوسطية ويلفت الانتباه إلى أنه يتم غالبًا المساواة خطأ بين الأصوليين من ناحية وبين النشاط السياسي والتطرف والتعصب والإرهاب ومعاداة الولايات المتحدة من ناحية آخرى.

ويبقى التساؤل الأهم الذي تصدى اسبوستو للإجابة عليه هل هناك تهديد إسلامي للغرب آم أن مقولة التهديد هي مجرد أسطورة؟

نقول باختصار غير مخل يرى الأستاذ الكاثوليكي أن الغرب أساء فهم الإسلام والمسلمين كما أساء فهم حركة الإحياء والتجديد الإسلامي... ويضيف "لقد أخطأ الغرب حينما صور في الماضي العرب والمسلمين على أنهم "بدو وصحراء وإبل وتعدد زوجات وحريم" ثم أخطأ مرة ثانية عندما استبدل هذا التصور بعد الثورة الإيرانية بأنهم "ملالي حاملوا بنادق أصوليون ملتحون مناهضون بعنف للحضارة الغربية" فاختزل بذلك الإسلام والجهاد الإسلامي في مقولة التطرف والإرهاب الديني مجاوزا للحقيقة فالعنف والإرهاب والظلم هي ظواهر إنسانية موجودة في العالم الإسلامي وأيضًا في مناطق أخرى من العالم وبقدر ما تبرز عند اللزوم باسم "الدين الإسلامي" فإنها يمكن أن تبرز كذلك بإسم الدين المسيحي وباسم اليهودية بل وبإسم الأيديولوجيات العلمانية.

لكن كيف رسمت هذه الصورة المغلوطة في اذهان الكثيرين من المفكرين الغربيين المعاصريين عن الإسلام والمسلمين؟

يقول "اسبوستو" السبب عائد إلى الحكومات ووسائل الإعلام والتقارير الصحفية والإعلامية المغلوطة لكنه يميط اللثام كذلك عن الدور الأعظم الذي لعبته إسرائيل وزعماءها في تضخيم الأصولية الإسلامية من أجل ضمان استمرار قناعة الغرب بأن إسرائيل ما زالت قيمة استراتيجية حيوية لمصالح أمريكا.

وفي محاضرة للبروفيسور اسبوستو في المجلس القومي للشئون الخارجية بالقاهرة أشار إلى أن الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن لم يكن لديه قبل انتخابه أي فكرة عن العلاقات الدولية أو عن العالم العربي والإسلامي ومثله مثل أغلب الشعب الأمريكي كان يجهل كل ما يتعلق بالإسلام حتى استغل اللوبي اليهودي في الولايات المتحدة أحداث الحادي عشر من سبتمبر ليوحد بين الإرهاب والإسلام.

ولاسبوستو دراسة مستفيضة حولٍ العوامل التي أعاقت جهود الغرب في القرن العشرين لتحليل الإسلام تحليلاً علمياً صحيحاً وهذه تحتاج إلى حديث آخر مطول، لكنه بحال من الأحوال يوقن بأن "العلمانية المطلقة" شلت قدرة الغرب بدرجة كبيرة على فهم طبيعة الإسلام بل وكثير من الأديان الأخرى حيث أدى تعريف الدين باعتباره نسقا للحياة الشخصية إلى حصره بطريقة مصطنعه في نطاق ضيق، بل وجعل العنف من طبيعته، وفي نفس الوقت نظر إلى العقيدة الدينية التي تخلط الدين بالسياسة علىٍ أنها عقيدة رجعية وقابلة للهوس والتعصب ومن ثم تشكل تهديداً ملحوظاً للغرب.

فيما المشهد الأخير في الحديث عن البروفيسور اسبوستو هو مشهد كارثة طائرة "مصر للطيران" التي تحطمت قبالة السواحل الشرقية لنيويورك عام ١٩٩٩م ويومها قال الأمريكيون إن مساعد قائد الطائرة الكابتن وليد البطوطي قد انتحر بالطائرة والدليل علىٍ ذلك تكراره عبارة توكلت على الله أكثر من مرة إلا أن اسبوستو وكعادة العلماء والرواة الثقات دعا لعدم الخلط بين السطح السياسي والعمق الثقافي وأعلن صراحة أن العبارة التي صدرت عن مساعد قائد الطائرة تؤدي المعنى المتضمن في تعبير الاستغاثة الذي يستخدمه الكاثوليك وهو "اغيثيني يا مريم" مشيراً إلى أن هذا هو تصرف الإنسان الورع عموماً في كل مكان.

هل يمكن الآن فهم لماذا يمكن أن يُطلق على الرجل وصف المستشرق العادل أو المستنير؟

# الحوار بين الأديان
# جسر وقنطرة للتعايش المشترك

صار الحوار من الضرورات والمسلمات في عالمنا المعاصر لإدارة العلاقات الإنسانية ولم يعد ممكنا التعاطي مع أي أسلوب آخر سواه ذلك لأن البديل لن يخرج عن كونه نار حارقة وخسائر خارقة فالجيتو لم يكن يوما طريقا ناجعا لحياة اجتماعية سليمة وكل من خبره يوقن الخبرات الأليمة التي عرفتها البشرية من جرائه.

**المؤلف**

أضحى من المؤكد في الآونة الأخيرة أن هناك عراقيل كثيرة باتت حاضرة في طريق التعايش والحوار والجوار بين البشر، في طول الأرض وعرضها وبدلا عن الوفاق والاتفاق بات الشقاق والافتراق هو واقع الحال، وليس أدل على هذا من أزمة الرسومات الدنماركية الأخيرة.

والواقع هو أن الحضارة في عمقها وجوهرها هي القدرة العالية على المشاركة في صنع الحاضر وصياغة المستقبل. والفعل الحضاري هو الجهد البشري الذي يبذله الأفراد والجماعات لتحقيق هاتين الغايتين ولا تكتمل لهذه المشاركة شروطها إلا بالتعايش الثقافي الحضاري بين الشعوب والأمم، الذي يقوم على قاعدة التعاون الإنساني الرحب الواسع غير المحدود، والذي تحكمه القيم الإنسانية النبيلة وتضبطه القواعد الحكيمة التي اجتمعت إرادة المجتمع الدولي على التقيد بها والاحتكام إليها.

والحقيقة التي لا مراء عنها هو أن هناك معتقدات للحوار وموضوعات وأهداف لذا فإنه ما دام الحوار الراقي هو مظهر حضاري يعكس تطور المجتمع ونضج فئاته الواعية فإنه لابد أن يستند إلى أسس ثابتة وضوابط محكمة وأن يقوم على معتقدات أساسية يمكن حصرها في ثلاث نقاط هي:

الاحترام المتبادل

الإنصاف والعدل.

البعد عن التعصب والكراهية.

والتساؤل المطروح اليوم على مائدة النقاش هل من فائدة للحوار عامة؟ وبين الأديان خاصة؟ هذا التساؤل أصاب الكثيرين من رجالات الأجناس العربية في الأيام الأخيرة والتي أعقبت أزمة الرسوم الكاريكاتورية الدنماركية بحيرة حقيقة ولم يملك أحد إجابة شافية وافية للرد عليه حتى أن كاتبًا كبيرً بقدر الأستاذ محمد حسنين هيكل يكتب عن صراع الحضارات فيقول ضمن مقال مطول "إننا حين قلنا بصراع الحضارات فقد اعترفنا بالعزلة وحين دعينا أو دعونا للحوار فقد ذهبنا لما يشبه طلب اللجوء من متظلم إلى متحكم" والمؤكد أنه إذ

كانت إشكالية الحوار مع الآخر عند من هو بقدر الأستاذ يمكن أن تلتبس مع هذا الوصف إلى هذا الحد فكيف يكون الحال عند العامة؟

ولا أدري لماذا تهافت على تفكيري مقولة الفيلسوف الفرنسي الشهير رينيه ديكارت أنا أشك إذًا أنا موجود وفي طرح آخر أنا أفكر إذن أنا موجود فيما رأى نفر ثالث أنا أريد إذن أنا موجود ومن باب حرية التفكير وجدتني أتساءل هل يمكنني القول أنا أتحاور إذن أنا موجود؟

الحقيقة أن قضية الحوار قد صارت من المسلمات في عالمنا المعاصر لإدارة العلاقات الإنسانية ولم يعد ممكنا التعاطي مع أي أسلوب آخر سواه ذلك لأن البديل لن يخرج عن كونه نار حارقة وخسائر مكروهة، فالجيتو لم يكن يومًا طريقًا ناجعًا لحياة اجتماعية سليمة، وكل من خبره عاد على البشرية بخبرات أليمة والحضور الإسرائيلي حتى الساعة خير دليل على ذلك فاليهودي اليوم يبني من جديد الجدار العازل حتى لا يختلط بالجوييم أو الأغيار إذ هو لا يستطيع العيش إلا أمام هيكل مهدوم أو حائط مكسور، ومن هذا المنطلق يبقى الجدل الدائر اليوم حول مواصلة مسيرة الحوار مع الآخر، وحوارات الأديان على وجه الخصوص جدل عقيم، ذلك أن الحوار أضحى حاجة مصيرية وأن كان يتطلب منا أن نتفهم آلياته ونحسن اختيار وسائله حتى لا يصبح ومن حق حوار الطرشان وهو المصطلح الذي درجنا على سماعه في الآونة الأخيرة.

وإن كانت أحداث ١١ سبتمبر قد أخرجت قضية الحوار بين الأديان على السطح ثانية؛ فإنها ـ للحق ـ كانت حاضرة منذ ستينيات القرن العشرين، ومهما يكن من أمر التاريخ، فإن هناك عدة مشاهد تحتاج إلى إمعان النظر في واقع حال حوار الأديان، لا سيما في ضوء الأزمة الأخيرة والانقسام الذي جرى حول جدوى ونفع المشاركة والحوار في مؤتمر كوبنهاجن في الدنمارك الذي شارك فيه بعض العرب والمسلمين وانكر عليهم البعض الآخر هذا الحضور.

ولعلنا بداية نقول أن المسلمين والمسيحيين واليهود في حاجة ماسة اليوم إلى مراجعة تصوراتهم التاريخية النمطية عن الطرف الآخر، من خلال إعادة النظر في المناهج التعليمية والخطاب الديني والثقافي والإعلامي". ومعنى هذه الدعوة: بناء قاسم مشترك أعظم في حياة أتباع الأديان يجابه ثقافة الكراهية، وبنائي محاولات فرض ثقافة واحدة أو هيمنة أيديولوجية معينة، تهدف لإخضاع البشر لنير العبودية الفكرية والمادية: وهو ما يعد ضد إرادة الخالق في التعددية ولعل

هذا القول يدفعنا للبحث في فكرة إنشاء مؤسسة دولية لحوار الأديان بهدف تعميق المعرفة بالطرف الآخر، وتعزيز ثقافة الحوار، ومراجعة الموروثات التاريخية السلبية التي تشكل عقبة أمام التفاهم المشترك بين أبناء إبراهيم الخليل و متابعة بذور الشقاق والافتراق ووئدها في مهدها قبل أن تستفحل مرارة وكراهية في النفوس.

والمؤكد أننا في حاجة لإعادة قراءة لفظة "حوار الأديان"، وفي تقديري أنه توصيف غير صحيح، والأجدر أن يطلق عليه "حوار أتباع الأديان": ذلك لأن الأديان مطلقة بطبيعتها والحوار عملية نسبية، ومعروف أن تعددية المطلق هي تعددية زائفة: لأن المطلق بحكم تعريفه واحد لا يتعدد، وإذا تعدد فصراع المطلقات حتمي؛ وهو ما نتج عنه في السنوات القليلة الماضية مأساة صراع الأديان عن زيف أو حق. ولحل صراع المطلقات يستلزم انتزاع المطلقية من وحدات التعددية. وهنا يصبح من الضروري الحوار بين الأتباع بحكم أن اتجاهاتهم وآراءهم نسبية وليست مطلقة، قابلة للقسمة وللاتفاق أو الافتراق بعيدًا عن جمود أو ثبات المطلق.

وعند كثير من الحكماء أن الحوار دعوة إلهية، وأن الوحي الإلهي كان حوارًا بين حمأة الأرض وجنة السماء، كما أن الأديان كافة جاءت لتحث الإنسان على الحوار مع الآخر؛ ففي الإسلام نجد قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ﴾ (الحجرات: ١٣). وفي المسيحية نجد الحوار مطلوبًا كذلك للتعارف بين جميع البشر، حتى وإن تمايزوا إلى أمم وشعوب وقبائل.

ومن بين التساؤلات التي تطرح علينا من جانب رجال النخبة والفكر في الغرب اليوم هل الإسلام يدعو للحوار؟ والإجابة نجدها عند الدكتور عبدالعزيز بن عثمان التويجري المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة "ايسيسكو" وفيها يذهب إلى أن الحضارة الإسلامية قامت على أساس التفاعل الحضاري فهي لهذه الخاصية ثقافة حوار في المقام الأول أخذت عن الحضارات السابقة واقتبست من ثقافات الأمم والشعوب التي احتكت بها وصهرت حصيلة هذا كله في بوتقة من التفاعل الحضاري فكانت حضارة الإسلام ولا تزال مثلًا نادرًا للتفاعل والمؤكد أن التفاعل الحضاري يستند في مفهوم الفكر الإسلامي إلى مبدأ التدافع الحضاري لا التفاعل الحضاري وهو المبدأ القرآني المحض الذي

نجد له أصلا في قوله تعالى "ولولا دفع الله للناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض" سورة البقرة الآية ٢٥١ ونقف على معنى آخر له في قوله تعالى " ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينه وبينك عداوة كأنه ولي حميم "سورة فصلت الآية ٣٤.

فالتفاعل إذن في المنظور الإسلامي هو عملية تدافع لا تنازع وتحاور لا تناحر والتفاعل حياة والتصارع فناء والتفاعل الحضاري عندنا حوار دائم ومطرد ينشد الخير والحق والعدل والتسامح للإنسانية قاطبة ولا يسعى في الأرض بفساد.

لكن ماذا عن الهدف الرئيسي من هذا الحوار؟ يرى المؤلف أنه ينبغي أن يكون هدفنا الرئيسي من السعي إلى إقامة الحوار الذي ينتج عنه التفاعل الحضاري بين أهل الثقافات أو الحضارات ومن هذا المنطلق تحديدًا هو إشاعة قيم التسامح بالمعنى الراقي للتسامح كما يفهمه المؤمنون بالله والمؤمنون بوحدة الأصل الإنساني وبوحدة المصير الإنساني أيضًا.

أما الهدف من إقامة الحوار المحقق للتفاعل بين الثقافات والحضارات عند معظم رجال الفكر الإسلامي الداعين للحوار هو التعارف بالمعنى القرآني السامي الذي هو الأصل في تعامل الشعوب والأمم بعضها مع بعض وفي تشارك بعضها مع بعض وفي تعاونها على الخير وعلى العدل والحق والأمن والسلام قال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ سورة الحجرات الآية ١٣.

ولعل أولى الفوائد التي تنتج عن مثل هذه الحوارات هو أن هذا الضرب من الحوار بين الثقافات والحضارات هو الأمل المنشود وهو الكلام الشافي من الأمراض والعقد الثقافية والفكرية والحضارية التي تتسبب في الاختناقات السياسية وتؤدي إلى الأزمات الاقتصادية وتخلق الاضطرابات الاجتماعية وهو رسالة التفاعل الحضاري في عالم سريع التغيير مقبل على آفاق جديدة سيكون على الإنسانية فيها أن تتقارب بوتيرة أسرع وأن تتبادل الأفكار والآراء والثقافات في إطار من المرونة والسماحة مما يقتضي أن يكون العالم العربي والإسلامي جاهزًا ومستعدًا للمشاركة العملية النشيطة ولممارسة الفعل الحضاري والمؤثر ومن تحقيق التفاعل الحضاري الذي يضمن المصالح العليا للأمة الإسلامية.

ومما لاشك فيه أنه يخطئ هنا من يظن أن مأساة الثلاثاء الأسود فحسب هي التي تقف وراء ذلك؛ لأن ـ على سبيل المثال ـ الكنيسة الكاثوليكية منذ

المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني بادرت إلى ترسيخ مفاهيم الحوار في عدة نصوص.

والمؤكد أن هذه الدعوة قد لاقت قبولا ومودة متبادلة لدى كثير من الأوساط الإسلامية التي بلورت ردودها وتفاعلها في جمعيات كـ"الإخاء الديني" في مصر منذ الستينيات، ويتجلى الآن في دعوة كثير من البلدان العربية والإسلامية لعقد مؤتمرات حوار الأديان على أراضيها، وقد كان مؤتمر الدوحة الأخير ليس أخرها بكل تأكيد.

ويبقى التساؤل عن أسس الحوار أمر حتمي إذ يقرر جدوى الفعل فما هي أسس الحوار؟

في تقديري أن الأساس الأول هو محاولة مسح الغبار عن العقائد أو الديمقراطيات؛ حتى تخرج من إطار القطع الأثرية التي لا تقدر بثمن والمكنوزة في المتاحف، والتي يقوم عليها موظفون وكهان أو علماء أو فقهاء يحمونها ويخدمونها، ويذودون عنها على أساس أنهم موظفو الله Les Fonctionnaires de Dieu على حد تعبير الكاتب الألماني Drewermany Eug ؛ ذلك أن أخطر ما يصيب أتباع الأديان هو الغرق في المقدس من حيث الطقوس، ومن ثم فراغ النفوس والبعد عن حقائق الإيمان والاكتفاء بمظاهر العيان؛ مما يحصر الشرائع والنواميس الإلهية في دعوات لتبرير قتل الأبرياء باسم الدين، والخلط بين الترويع والإرهاب وحق الدفاع عن النفس والحرية والكرامة وحرية العقل والنقد.

أما الأساس الثاني - والذي بدونه يصبح الحوار ضربًا من ضروب الحرث في الماء - فهو العدل والتضامن؛ فالمسيحية تدعو للعدل، والإسلام كذلك يجعل من العدل أساس الملك، أما التضامن فبدونه يصبح الحوار كنحاس يطن أو صنج يرن؛ فما فائدة حوار الأغنياء مع فقراء يتضورون جوعًا؟

لذا فإن الحوار إن لم يكن ينشد بناء المدينة الفاضلة كما حلم بها اليوتوبيون من حيث قيامها على أسس العدل والتضامن، وليس على حراب قيصر المرتكزة إلى المجد والقوة والمال وفوهات البنادق؛ فليلزم كل منا داره؛ فذلك أجدى وأنفع.

والأساس الثالث هو الحوار القائم على المودة والحب؛ وفيه"أنا على موعد ليكتمل وجودي بإطلالة الآخر وإقباله لفرح اللقاء والوجود"، وعنده كذلك "أنا أحب وأعرف الآخر، إذن أنا موجود."

أما إذا أقبلنا على الحوار من منطلق يبطن مذهب "الآخرون هم الجحيم" كما يقول سارتر، أو "إن لي رغبة لقتل الآخر" كما يذهب "هيجل"، ناهيك عن شهوة ذئبية لنهشه كما يعتقد" هوبز"، أو إرادة تشيئية كما يصر سارتر من جديد.. فما فائدة الحوار أو نفع الجوار؟

وكذلك فإن المؤمنين من المتحاورين - على اختلاف أديانهم - مطالبون اليوم بمواجهة أزمة كرامة الحياة التي يجب صيانتها بإجلال الأمومة، ورفض الإجهاض، والتقدير الصحيح للمعوق والمريض، والحب النير الذي يجب أن يحاط به المحتضرون، والرفض الجريء لكل أنواع ما يعرف بالقتل الرحيم, .وقبل هذه وفيها وبعدها الاحترام المتبادل لعقيدة الغير وإيمانه ومعتقده إلى أقصى حد ومد.

والمسلمون والمسيحيون واليهود مواجهون بحتمية الحفاظ على كرامة الإنسان؛ فلا يرغم إنسان على فعل ما يخالف ضميره في الشئون الدينية، ولا يمنع من العمل الفردي أو الجماعي ضمن الحدود الصحيحة بحسب ضميره في السر أو في العلن.

إضافة إلى ما تقدم هناك دافع آخر وهو التبادل المتزايد بين الشعوب نتيجة تطور وسائل الاتصالات؛ فقد أصبح تعدد الديانات حقيقة تفرض نفسها، وبات الانغلاق على الذات أو الاكتفاء شبه الذاتي مستحيلاً، ولا شك أن حالة التعددية الراهنة لا تكتفي بالتسامح، فهذا كان في زمن كانت فيه الديانات والثقافات مكتفية ذاتيا بسبب تجمعها في مناطق جغرافية معينة، في حين أن شرائح كبرى من الشعوب اليوم تعي بتزايد الغنى الموجود في جميع الحضارات والأديان؛ لذا فإن التعايش لم يعد كافيا؛ بل لا بد من التفاعل والعمل المشترك في سبيل الخير العام، ولا سيما السلام والعدالة.

ويبقى في النهاية التساؤل المهم وهو هل طريق الحوار هو طريق سخاءًا رخاءًا معبد للسائرين فيه؟

أقول كلا بل هو مليء بالمعوقات لكن هنا لا بد من التفريق بين المعوقات الداخلية والخارجية؛ أما الداخلية فهي كيفية الدخول إلى عالم الحوار، فلا

يمكن أو يصح الدخول إليه في ظل ضغوط نفسية أو غير نفسية؛ ذلك لأن الحوار مثل الصداقة، لا يقوم إلا نتيجة الحرية والاختيار الحر، ثم أن الحوار يفترض تضامنا مع الطرف الآخر والابتعاد عن موقف الشك أو رفض ما يأتي به الآخر أو ما يطالب به: إذ يبدأ بنظرة حق إلى مطالب الآخرين، وشعور حقيقي بهمومهم وأوضاعهم: لذا فإنه لا بد للمحاوِر من نظرة احترام كلية لشريكه على أسس المشاركة الفعلية، ولا بد للمتحاورين من التحرر من ثقل الأحكام المسبقة أو التصورات النمطية عن الآخرين، ولا بد لهم كذلك من تربة نفسية سليمة، قوامها الاستعداد للتعلم من الآخر؛ لتنمية لقاء روحي عميق يحث كل طرف على أن يتقدم في فهم إيمانه وترجمة ذلك في الحياة اليومية.

ولعل الدكتور التويجري كان في رؤيته لإشكالية الحوار يستشرف أزمات الأيام القادمة ويوصف لها ما يلائمها من وصفات على طريق الأمل في حوار جدي وندي في الوقت ذاته إذ يرى أن حوارنا مع الغرب سيظل دائمًا مرتبطا بنحو نا الداخلية وأوضاعنا السياسية والاقتصادية وبما نملكه من أسباب القوة المادية والتأثير المباشر وليس معنى ذلك عنده أننا سنتوقف عن المساعي التي نبذلها من أجل مد جسور التقارب والتواصل مع الغرب إلى أن نبلغ المستويات الراقية من التقدم التي تؤهلنا لاكتساب شرط التكافؤ والندية مع الغرب ولكن المعنى الذي نقصد إليه هنا هو أن تتكامل جهودنا وتترابط مساعينا وتتسق مواقفنا بحيث نسير في خطوط متوازية نحو الاتجاهات التي نرسمها لأنفسنا وهذا يقتضي أن نعمل دائمًا من أجل إقناع الغرب بأننا جديرون بالحوار معه على كل المستويات وبأننا أمة قابلة للتعايش والتعاون الشاملين مع كل الأمم والشعوب وأن التعايش والتعاون والتسامح هي قيم راسخة فينا وقيم ثابتة في حضارتنا.

ونحن نعتقد أن العمل بهذا المنهج ذي الأفق الواسع من شأنه أن يؤدي بنا إلى تطوير الحوار مع الغرب وإلى إثراء هذا الحوار ودعمه وإلى الوصول به عند المستويات التي تحقق لنا مصالحنا وتحفظ لنا سيادتنا وثقافتنا الحضارية واستقلالنا الفكري غير القابل للذوبان في الثقافات التي لا تنسجم مع ثقافتنا وحضارتنا وهويتنا دون أن يكون ذلك ضربا من ضروب الانعزال والانكفاء على الذات ولكنه الانفتاح المحسوب والتعامل مع الغير على أسس قوية ووفق مبادئ ثابتة. أما المعوقات الخارجية فتتمثل في النزعات الإمبراطورية التي تتخذ الدين ستارًا لتحقيق مآرب أبعد ما تكون عن روح الإيمان، وأتفق هنا مع "موريس بورمان" - من مركز الحوار الإسلامي المسيحي في فرنسا - الذي يذهب إلى

القول بأن الأخطاء التي وقعت فيها الإدارة الآمريكية خاصة احتلال العراق آثرت على مسيرة الحوار الديني في العالم". وأضيف إلى ذلك أنها أرجعتها إلى الوراء كثيرا؛ مما جعل الحوار مع" الصليبيين واليهود" أمرًا مكروها.

يبقى القول - وكما تقول الصوفية - بأن "الناس عيال الله"، لكن بعضًا من عياله أراد الوصول بنا إلى نهاية التاريخ وصراع الحضارات وتناحر الأديان؛ فهل سيقدر لحوار أتباع الأديان أن يبدأ تاريخًا جديدًا من حوار الحضارات والثقافات والناس والأديان؟ إنها دعوة لرسم تباشير الصباح على جبين فجر حمل ليلُه الكثير من الترويع والتعصب، وهدد المستقبل في أعز ما تملكه الإنسانية.

# الفهرس


تمهيد ........................................................ ٤
تقديم د/ علي السمان .................................... ٥
مقدمة.......................................................... ٧
لماذا (جسور لا جدارن)؟ ................................ ٧
الكنيسة الكاثوليكية والعالمين العربي والإسلامي ........................١٧
فرنسيس الاسيزي ١١٨١م ــ ١٢٢٦م قديس ضد الحروب الصليبية .....٢٩
جورجي زيدان ١٨٦١- ١٩١٤ ودور المسيحيين العرب ................٣٩
لويس ماسينون ١٨٨٣- ١٩٦٢ رجل أحب المسلمين كأنه واحد منهم....٤٩
مكسيم رودنسون ١٩١٥ – ٢٠٠٤ العدالة طريق العيش مع العرب ......٥٩
الأب جورج شحاته قنواتي ١٩٠٥- ١٩٩٤
لا ثقافة بلا دين ولا دين بلا ثقافة.................................٦٩
جاك بيرك صديق العرب..ضيف على الإسلام ..........................٧٩
هيلاريون كابوتشي أسد من حلب للدفاع عن القدس......................٨٩
نعوم تشومسكي قوة الحقيقة في وجه حقيقة القوة.........................٩٩
إدوار سعيد الاستشراق في وجه صدام الجهالات.......................١١١
جون اسبوستو التهديد الإسلامي بين الواقع والخيال....................١٢١
الحوار بين الأديان جسر وقنطرة للتعايش المشترك ....................١٣١
الفهرس ........................................................١٤١

| رقــم الإيــداع<br>٢٠٠٦/١٦١٦٣ |
| --- |
| الترقيــم الدولــى .I.S.B.N<br>977 – 209 – 151 - 8 |